قمر قيس

قمر قيس

رواية لـ

خير الله تعمري

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

ببلومانيا للنشر والتوزيع

نوع العمل: رواية

اسم العمل: قمر قيس

اسم المؤلف: خير الله تعمري

تدقيق لغوي: فريق ببلومانيا

اعداد ومراجعة: فريق ببلومانيا

لوحة الغلاف: خير الله تعمري

رقم الإيداع: 2018/13815

الترقيم الدولي (ISBN): 8-55-6607-977-978

الناشر /دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

المدير العام / جمال سليمان

تليفون /26061014 (20+)

هاتف محمول/ 1208868826 (20+) - 1065534541 (20+)

صفحة الدار على موقع فيسبوك:

https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

الطبعة الأولى 1439 هـ - 2018 م

تنويه: ما ورد في هذا الكتاب يعبر فقط عن وجهة نظر كاتبه

إهداء

إلى الذين توقف الزمن من أجلهم زمناً، إلى بنفسجية الأزهار، وإلى أولئك الذين يستحقون أكثر من وهلة وعمر، ممتنّ أنا لعطر وجودكم...

خير الله تعمري

جرأة أم صراحة، تلك اللعبة التي يلعبها الكثير من الناس...ولكنني الآن سألعبها معك.

ها هي القارورة تتجه نحوي، بشكل متتالٍ، لذا سأجيب بالصراحة أولاً ثم بالجرأة، ولكن في البداية أود أن أعلمك بأن هذه الرواية نصف صحيحة والنصف الآخر محض خيال حدث في حياة أخرى، لذا عليك أن تنصت لكل شيء ثم يمكنك الحديث.

هكذا علّمتنا المدارس، بأن من آداب الاستماع أن تنصت جيداً ثم تتحدث...آه نسيت! قصدت هكذا علّمتنا المكتبات، فلم تعلّمنا المدارس سوى أن ننصت دون تعليق، وأن المعلم دائماً على حق، وأن المعلم سيضربك من أجلك، ويمزق دفاترك من أجل خطأ بسيط حتى تعرف بأن المجتمع هذا لا يحب "الأخطاء"، وأنك حين تشتكي لمن هو "أكبر منك" فأنت كاذب وإذا قلت غير ذلك سيسألك مديرك إذما تقول بأن "المعلم" يكذب وينظر لك نظرة حقد، فتسكت.

هكذا هو المجتمع...سيذيب أفكار الجميع بقالب كبير يحمل الشكل الذي يريده ثم يصبغه باللون الذي يفضّله ويخرجه بشكلٍ جديد.

لكن هذا ليس موضوعي الذي أريد التحدّث فيه...نحن نتحدث عن الجرأة والصراحة، أليس كذلك؟

أنا قيس، أسكن وحدي في منزل كبير وشرفة واسعة. يتوسط غرفة المعيشة طاولة مستديرة خشبية، وزهور الغاردينيا تسكن مزهرية فسيفسائية لتزين تلك الطاولة، وعلى الحائط جدارية لإحدى رسومات كلود مونيه.

على اليمين يوجد غرفتي الخاصة، فيها سرير ثنائي لونه أبيض، وطاولة عليها وزهور البنفسج، وخزانة كبيرة، ولا ننسى بالطبع علبة السجائر.

على الجانب الآخر يوجد مكتبي الخاص، مكتب صغير نسبياً لكنه يتّسع للكثير من الكتب والدفاتر والأقلام وغيرها.

في ذات الغرفة يوجد كنبة ثنائية وأخرى ثلاثية من أجل أصدقائي الكثر، وهناك أيضاً مكتبة خشبية قد فاضت منها الكتب.

لا شيء يهمك هنا؟ أنا أيضاً أكره الوصف الكثير بلا معنى. أعتذر لكنني كنت أرتب أفكاري. أتدري كم من الوقت احتجت حتى أرتب هذه الأوراق؟

لا يهمك أيضاً، أليس كذلك؟

حسناً سأبدأ.

الصراحة

- أعتقد بأن رأسي سينفجر فعلاً.
- لا تقلق أخي، هذا من تأثير الصدمة، مؤلم أن تذكر كل التفاصيل بلحظة واحدة، عليك أن تأخذ فترة للراحة، لذا لتنم الآن وسأعود لأشقّ عليك ليلاً.

يصدر الباب صوتاً فيعلن إغلاقه، وتعلن عينا قيس نومهما الثقيل المأجج بالتعب

***

هل كتبت مذكراتك ذات ليلة، ثم فتحتها في يوم نسيت فيه كل شيء فلمعت كل تفصيلة مما كتبت أمامك بلحظة؟ هذا ما حصل معي، ولكي تفهم ما أقول، سأعيدك ثمان سنوات إلى الوراء، أو كما تعرف: أول صفحة في دفتر المذكرات هذا.

انتظر سأبحث عنه بين الأوراق المبعثرة من على ذاك المكتب...آه ها هو...

(بسم الله نبدأ)

- هيّا يا قيس، سنتأخر!
- انتظر قليلاً، أنت تعلم أن المدرسة تبعد كيلومترين، لن أذهب راكضاً!
- حسناً، ها أنا ذا هذا هو روتينه اليوميّ: يستيقظ فجراً، يصلي، يقرأ أو يراجع درساً من دروسه، يحمل حقيبته، ويرافق صديقه أحمد للمدرسة ثم يكمل يومه بدون شيء يذكر.

***

- أتمنى لو أن المسافة أبعد فأنا أعشق المشي بجانب البحر (على الكورنيش) على عكس صديقي الذي لا يحب تكرر الأشياء، ليته يفهم بأن البحر هنا كل يوم يحمل قصة جديدة، مثل القصة التي سألتقي بها خلال دقائق.

على الصخور يجلس بضعة شبان، أحدهم يحمل جيتاراً والآخران يغنيان، لقد وصلتني بضع كلمات مما يتغنون به. أذكر أنها كانت:

لو شربوا البحر أو هدوا السور
لو سرقوا الهوا أو خنقوا السور
ما بيعها لعكا بالدنيا كلها

وما ببدل حارتي ولا بقصور

- أتعرف يا صديقي...أشعر وكأنني ألاحظ كل شيء بنظرة واحدة
- ماذا تقصد؟
- أعني...أنظر لذلك الشاب الذي مرّ بجانبنا منذ وهلة..إنه على الساعة السادسة...هل رأيته؟...إنه يرتدي قميصاً أزرق ، بنطالاً أسود، نظارةً سوداء، ساعة يد ذهبية، وحذاء أبيض.
- يضحك قائلاً: أنت تكذب، لا شك أنك حدّقت به كفايةً لتقول كل هذا، لذا سأختار لك شخص آخر وعليك أن تكون موفّقاً لأصدّقك.
- موافق!
- على التاسعة، هنالك فتاة...أخبرني يا فصيح...ماذا ترتدي؟
- ينظر لوهلة وأحمد يراقبه...يقول: سترة بيضاء...شعرها بنّي وطويل، حقيبة مدرسية رمادية، حذاء باليه أسود، وأعتقد أنها ترتدي سواراً بيدها اليمين لونه أصفر.
- أنت مدهش!...يضحك ممازحاً: لا شك أنك تعرف لون عينيها
- كانتا سوداوين
- لن أصدقك

- غداً سترى بعينيك...أشعر بذلك
- يعلّق ساخراً: مفعم بالإحساس
- لقد تأخرنا يا قيس!... كل هذا بسببك
- يضحك ثم يقول: حسناً إن شئت فهو كذلك...أعطني كتفك لأتكئ عليه، ويمكنك أن تخبر مدير المدرسة بأن رجلي تشنجت في الطريق، وأنك تأخرت بسببي

***

- أعزاءي الطلبة: آمل أن تكون سنة خير للجميع، التزموا بالزيّ الرسمي: (قميص رمادي، وبنطال كحلي)، ومن يرتدي غيره سيعود من حيث أتى، وإذا تكرر الأمر أكثر من مرّة، عليه أن يحضر وليّ أمره أو لا دوام له عندي. التأخر ممنوع عدا بعذرٍ مقنع. أتمنى لكم التوفيق والنجاح، يمكنكم الصعود إلى صفوفكم

الطلّاب يصفّقون دونما سبب يذكر ثم يدلف أحمد وقيس مع الطلّاب دون أي عقاب، بالطبع إنه اليوم الأول للمدرسة، يمكنك التأخر اليوم

- تاركين العالم بالشمس من الصبح مشان يحكي كلمتين ويهدد الطلّاب، مش ناقص إلّا يحكي أماماً مد وجانباً ضع!

- يالله، تعوّدنا إلها المدارس من لما وعينا على الدنيا هيك
- اطلع نشوف

الممرات بين الصفوف فارغة من الطلّاب، الجميع في صفه، المعلّمون لا يحملون (أذناب البقر)، والكل بخير. هدوء معتاد، صفوف منتظمة، قابلية معتادة للتعلم والتعليم!

تنتهي الحصص الثلاث الأولى، يخرج الجميع إلى ساحة المدرسة من أجل فسحة الغذاء. المدرسة من ثلاثة طوابق، الكل يخرج في آن واحد، البعض يركض على السلالم، البعض يشتم، والبعض يغضب.

لكن عند الانتهاء من الفسحة ستجد بأن الساحة نظيفة جداً، هنالك ما يكفي من حاويات القمامة، والجميع يلتزم بنظافة المدرسة والمدينة.

- طيب شباب، بكرا الكل يكون معاه كتب، اللي بجيبش مش مسؤول عنه، عمره ما ياخذ حصة
- بصوت لا يتجاوز الذين بجانبه: واحد بيجي ينام، واحد بيهدل طلّاب، وواحد متقاتل مع مرته بيجي يفش غله فينا!

(أعتقد أنك بدأت تعرف مواطن الصراحة والكذب المطلق)

هكذا كبر قيس وعاش حياته في مدينة جنين التي ليس فيها بحر، ولا ثلج شتاء. كانت آماله تكتب كسخرية سوداء عن واقع معتم، ذكريات خيالية، وكاتب يكذب بصدق.

ولكنه وفي كل مرة يكتب فيها شيء من حلمه جرّه الجميع للواقع مرّة أخرى، فما كان منه سوى أنه قرر حينها أن يفعل ما كتبه على نفسه: (عليك أن تصنع قدرك، تختار من هو، أين، مع من، وكيف يكون، لأنك إذا استسلمت للانهائية الواقع؛ ستقع حتماً في هاوية البقاء)

***

- تقرير الحادث؟
- كسر في الضلع الثالث، كدمات وجروح عميقة، إصابة بالرأس قد تؤدي إلى الـPTA
- أنت! امنع دخول كل من ليس له عمل هنا. أعطني المخدّر

يستمر الأطباء في عملهم ثم يخرج الطبيب المسئول ليحدث عائلة المصاب: إن السيارة التي قامت بدهس ابنكم سببت له كسر في الضلع الثالث وعدة جروح وكدمات، لكن الخبر السيّئ أنه قد يعاني من (فقدان ذاكرة ما بعد

الصدمة). أعتذر لكن إصابة الرأس كانت شديدة، سيحتاج بضع من الوقت لكنه سيشفى.

- هل رأيت! أخبرتك أن عيناها سوداوين
- يضحك بسخرية: أنت مجنون!
- أعلم ذلك، لكننا الآن سنخرج من حلمي إلى واقعك، لقد تأخرنا مرة أخرى
- سأحمل الذنب أنا هذه المرّة

وهكذا تمر أيام قيس المعتادة بروتين معتاد لا شيء جديد، حتى قرر أن يجرّب شيء جديد في حياته، فحينها وعند عودته بدأ بالكتابة والقراءة اليومية.

واستمرت أيامه الأخرى على روتينه الجديد، لكن الشيء الذي كان ينتظره كل نهار هو كتاب، ليس كتاب يقرأه بالطبع! لكن كتاب بشريّ، لنقل أنه كتاب مؤنث، صفحاته بنّية اللون، على غلافه الأبيض نقطتي حبر بلون أسود. مزيج مدهش بالنسبة إليه! لقد كانت ذات الفتاة التي بات يصادفها كل يوم منذ سنة ونصف. في حينها لم يكن يعرف سوى اسمها وعمرها واسم مدرستها، ومع الأيام أصبحت معرفته تزداد بها، من بعيد.

كان اسمها قمر، قمر يبدأ من عنده كلمة قلم أسود لقيس، فيكتب في حين شتاء: (واعتبر أنك أرض حين الشتاء، دع الريح يداعب روحك، كن أنت الطريق، كن ترابها العطر، وتنفس)

والآن، علي أن أخبرك أنها ليست رواية عشق فحسب، وتذكّر أن لا تحكم على صورة من نصفها.

هنا، يبدأ التقاء الكون، منذ تلك اللحظة أشعر كلما أغمضت عينيّ بقدرتي على السفر خارج حدود الزمكان. نعم الجسد يبقى، ولكن الروح تسافر. أشعر وكأن الكون كله حاضر بداخلي أشعر في كل نسمة وكل قطرة من السماء، وفي كل ذرة من تراب.

أدركت معنى حب العين حينها، حب أعمى يُرى في العين البصيرة. لكن تلك الحالة لم تعجبني. لطالما كرهت الصمت، لذا كان عليّ التحدّث، فقررت حينها أن أقرأ أكثر وأكتب أكثر، حتى أفهم مفهوم النساء المعقّد، وها أنا بعد مرور سنوات أظن بأنني نجحت في ذلك. أما في حينها، كنت ذاك الشاب المجول، ليس لي سوى صديقين ونصف، بلا أقارب، وأعيش وحدي بعدما توفي الجميع في وهلاتٍ متلاحقة. كبرت بسرعة، وطفولتي انتهت بسرعة أيضاً.

وفكّرت إن كنت جاهزاً لاستقبال أشخاص جدد في حياتي غير أصدقاء الدراسة، فما كان مني إلّا أن سألت أكثر عن تلك الفتاة، قمر، أو كما أسميتها بعد بضع سنين بداية النهاية...

والآن نجلس على شرفة المنزل في ساعة غروب جميلة. أنا وصديقي أحمد، ذاك الذي أعرفه منذ عشر سنين خلت، أمامنا بحر حيفا ورائحة السمك، على الطاولة الصغيرة إبريق شاي، بضع ورقات من النعناع وكوبين.

- أتذكر تلك الفتاة بشعرها البنّي
- يقول ساخراً: أتقصد راقصة الباليه تلك؟
- نعم تلك التي ترتدي حذاء باليه
- وما شأنها؟
- إنها تسكن في الحي المجاور، تدرس في مدرسة راقية ومعهد موسيقى قريب

***

أخبرتني إحداهن ذات يوم، بأن طبعي غريب أستمع لأغاني فيروز ليلاً، أو أستمع لموسيقى هادئة ثم (أشياء جنونية)

فقلت: إن الأرواح يا عزيزتي ترغب بما هو أغرب منها، أنا لا أكتب سوى بقلم أسود، لا يعني هذا أنني أكره الألوان الأخرى، لكنه يعني أن روحي أحبت هذا لي.

وتظهر لي كل يوم في الفجر الذي يجلس في كؤوس من أثير، وفي العصر الذي يدخل دفئُه من بين جفنات العنب، والليل الذي أتلحف به السماء.

قمر بعد سنة ووهلة ما زالت لا تغيب ولا يغيب غموض نظراتها المعتادة. لكنني سأصل وأقترب ذات يوم للقمر.

***

وأحدّث نفسي حينها: أما الآن فإنني وبكل ما أوتيت من قوة أكتب، فالكتّابة يا عزيزي ليست حبراً يسقط على ورق، فإن لكل ورقة قصة، ولكل قطرة حبر قطرة أخرى من رائحة للفرح أو قطرة من الدموع، وفي كل حركة يد، رجفة قلب، ذكرى. الكتّابة راحة، شهيق للروح...فاكتب: سواء قصيدة، خاطرة، أو حتى سحابة عابرة، لأنها غذاء للذات ومهرب من كل خيبة. لا ترغم نفسك عليها، فهي مثل أنثى أو نعمة عند الحاجة تأتي بخفة.

- غداً سيكون يوم ممتلئ، أشعر بذلك، وإن ظنّي لا يخطئ، أشعر براحة غريبة، سيأتي أحمد وسيكون كل شيء بخير.

وبدأت أعد نفسي بأن كل شيء سيصبح على ما يرام، وشعرت أنني طفل صغير لم يأكل الفطور الذي أعدّته له أمه فعاد مرتبكاً.

- والآن أخبرني أحمد، من أي البلاد هي؟
- ليست بالبعيدة عن خيالك، إنها من الناصرة
- ناصرة إذن! هذا يفسر حلم زارني بالأمس
- وما هو؟
- حسناً سأخبرك. كنت أجلس على شرفتي البحريّة، حتى وردني اتصال من فتاة لا أدري من كانت لكن اتضح أنني أعمل دليلاً سياحياً. انظر... كتبت كل شيء على هذه الورقة

(اضاءت شاشة الهاتف الصغير بسم سارة، فقالت وقد أجبت: قيس عليك الحضور، هنالك مجموعة سياحية قادمة من المانيا، يريدون التجوّل، خذهم لحيفا والناصرة والقدس بدلاً منّي أرجوك، لا تقلق يفهمون الإنجليزية أحدّث السيّاح بلغة إنجليزية متقنة:

- حسناً سنبدأ من هنا، في البداية...قضاء حيفا (يقول حيفا مع زفير وكأنه تنفس)

مالت السيّارة بنا حتى وصلنا قرية "إجزم" بأبنيتها القديمة المرممة، يتناثر على أرضها شيء من الياسمين، الآبار والينابيع العذبة تملأ هذه القرية. جميلة هي الشمس التي تملأ الأرض حين تبسط أشعتها على شجر الزيتون فيها.

انتقلنا إلى القرى الأخرى... كلها عُمّرت بعد التحرر!

***

عندما خرجنا هذا الصباح كانت أولى محطاتنا جامع الاستقلال، تذكّرت حينها عنوان على صفحة من صحيفة قديمة (على باب الاستقلال).

- آه، متى كانت آخر مرة قرأت فيها شيء، ألم أحفظ وعدي لوالدي بأن أقرأ كل كتاب بمكتبته التي تركها واجهة في بيتي الواسع.

والآن أخرج دفتر المذكرات من دفة سترتي لأترك الذاكرة مخاطبة صور قديمة مشوشة فأنظر لتلك الكلمات، لترسم معها بسمة شفاه متألّمة، لم يتركا لي سوى بضع مذكرات وذكريات، سوى بضع كتب...

من أنت؟

أجبت: أنا الحي بين الموتى

من أين أنت؟

استيقظت تحت الركام على بقعة حمراء اسمها دم، وبجانبي خيمة رطبة في مخيم أصم...بلا مأوى

وماذا تريد؟

أبحث عن خبز يابس وماء حتى تخرس معدتي الجوعى

كم عمرك إذن؟

أخبرتك أني خرجت ناسياً...أترى الغبار أم أنت أعمى؟

اضربوه واسألوه من يكون وابن من!

يدك ليست أثقل من تلك الصخور. الآن أذكر من أكون وابن من...ويا لي من فخور.

أنا ابن بقعة الدم التي رشقتها يدك من والدي على الركام والرخام يا ابن الحرام!

يقول الجندي للزميل: مات بعد أن ذكر الميّتان

فيجيب: اخرس يا جميل قبل أن يسمعك الزعيم فتصبح مثل القتيل...في ذاكرة النسيان

علّقوا جسده وخذوا صوركم التذكارية، ثم جرّدوه من الإنسانية...ومن كل شيء حتى الأظافر والأسنان

أين نعلقه سيدي؟

على باب الاستقلال، واكتبوا بدمه (ليكن شاهداً للعيان)

نحن من يقتله، ونحن من يسرق الأوطان

ما أقدم تلك الكلمات!

***

انتقلت الحافلة بنا إلى الناصرة (قلب الجليل)، مزيّنة هي بشجيراتها وبراعمها، بقدسيتها وجمالها. سماؤها أشد زرقة، لها نكهة خاصة، مثل سمك عكا. الجو صافٍ اليوم. كنيسة البشارة كانت محطتنا الأولى، دخلنا بابها المقوّس بصخورها البيزنطية، على أرضية ساحتها بلاط غير مستوٍ في المنتصف وبلاط أقرب زمناً على اليمين واليسار، كنيسة للروم الأرثوذكس، دخل الجميع وظللت أنا في الخارج أتأمل زرقة السماء. لا يزال ذلك الشعور يراودني منذ الصباح، طاقة تجذب انتباهي بأن هناك شيء قريب وجميل في آن. أشعلت إحدى سجائري وجلست لربع ساعة حتى انتهى السيّاح من تلك الزيارة لتكون عين العذراء محطتنا التالية.

نزلت بخطوات سريعة ووقفت عندما لمست قدماي الأرض لأتأكد من حضور الجميع، ثم بدأت بالحديث عن العين دونما النظر إليها: (هذه النبعة تسمى عين العذراء وكما ترون، هذه الساحة العتيقة هي ساحة العين، يقال بأن هذا المكان هو المكان الأول الذي بشرت به سيدة العذراء بابنها عيسى عليه السلام)

عليه السلام، كانت آخر كلمة أقولها حتى التفت ناظراً للعين، فوجد في العين عين قمر

تلعثمت كلماتي وخطواتي، فاتصلت بسارة طالباً منها أن تحل مكاني، إذ أنني لم أستطع أن أكمل، وأما ابتسامة قمر؟ فكانت أشد لمعاناً من القمر)

***

- عذراً صديقي لكن هذه ليست أحلام، هذه مجرد أوهام لا تحقق، والآن أخبرني ماذا تعرف عنها غير اسمها وعمرها؟
- تحب الموسيقى
- إذن تعزف؟
- نعم، تذهب إلى معهد موسيقى كل يومين
- أنت تعرف فيما أفكر، أليس كذلك؟

- كلا، لن أفعل ذلك
- إنها أول فتاة في حياتك يا رجل، لتذهب
- ليس الآن، ليس بوقته
- هيّا لنذهب، سآخذك إلى مطعمنا المعتاد

***

يقول محتّجاً: ما شأنك، لم نجلس سوى خمس دقائق ثم تأتي لتخبرني بأن علينا الرحيل!

- سأخبرك بما حصل لكن ليس الليلة، لنشاهد فيلماً الآن
- موافق، سيكون أفضل من أفلامك اليومية!

***

اليوم، استيقظ وفي داخلي شيء من الأمس، وشيء من الراحة التي عجزت أن أعرف سبب حضورها المفاجئ، اليوم يراودني طيفها على شكل مستقبل، شيء سيحصل.

لكن الآن لا يوجد سوى قهوة تغلي على نار هادئة، والشمس التي تظهر شيئاً فشيئاً، وعلى المنضدة سجائري، قهوتي، هاتفي، أوراقي، وقلمي الجاف

الأسود، لون كلماتي المفضل، لون غذاء ذاتي والذي أرسم فيه معاني الشعور وتفسيره من كلمات وأذناي التي تلاحق صوت فيروز.

(فيروز الصباح، فالليل مظلم وسيمفونيته محزنة، والصباح سيمفونية ملوّنة بزرقة السماء وزقزقة عصفور وسلام الهديل، جمال ظاهر في كل شيء، وصوت فيروز اشبه بقطرات ندى أو لمسة لذاك الجمال، والبحر عذب للعين، وشمسه كفنجان قهوة دافئ ومنفرد)

أغمض عينيّ، أتلذذ بجمال كل هذا، وأدخل التقاء الكون. أشعر وكأنني البحر والشمس، وقمر كانت السماء التي يصعب فهمها، أنا طليق من جسدي، أنا طير حر في الهواء، وأنا أيضاً نسيم الهواء، كنت بحراً، وكنت براً، كنت زهرة نرجس، وكنت الشجر، أنا خطوة تترك لمسة على التراب، وأنا أيضاً التراب. لكن أفكاري لم تغادرها، وفي كل هفوة كنت أذكر ملامحها التي لا تغيب، وأقول في نفسي سيتغير كل شيء، حتى حياتي المملة ستتغير. لم أدرك حينها كم استغرقت من الوقت حتى فتحت عينيّ لأذكر حديث درويش مع نفسه، (وأَقولُ لنفسي: سيطلع من عَتْمتي قَمَرُ)

وهكذا استمرت أيام قيس، من روتين قديم ليس له معنى إلى روتين يتيم يبحث عن حضن جديد. لقد كانت قمر، قمره الصغير، تعلّقه الجديد في هذه الحياة.

***

في ذلك اليوم عندما غادر المراهق الغاضب ذلك المطعم، كان هذا ما حصل:

- ممسكة بيده وفرحة جداً! بالطبع فهو يبدو عليه الثراء، لكنني ضربته بشدة
- من تقصد؟ قمر؟ تعاركت مع الشاب الذي برفقتها؟ لا شك بأنك تمازحني!
- رأيتها برفقة شاب ولم تخبرني بذلك! ظننت أنك لم ترها
- هذا لأنني أعرف من يكون، إنه مازن أخو قمر يا غبيّ! والآن عليك أن تصلح غلطتك، كم أنت غبي! لما تصرف الأطفال هذا

وهكذا بدأت اندفاعات قيس الأولى، ففي حياته أو حيواته الثلاث، سيجنّ ثلاث مرّات، وهنا كانت المرّة الأولى أو كما تقول ريم: جنونه الصغير.

لربما تتساءل من تكون ريم، حريٌّ بك أن تصطبر، فهي ستكون الثانية الأولى، وأعدك بأنك لو قابلتها أو رأيت ثغرها يبتسم لظللت طوال يومك تتصدّق في وجوه الآخرين، فانتظر عزيزي إن الشمس لا تشرق دفعة واحدة.

***

- صلة القرابة للمريض؟
- أنا صديقه، ليس له أحد
- يمكنك زيارته لخمس دقائق فحسب
- حسناً، لكن أخبرني كيف حالته؟
- إن وضعه مستقر، هناك احتمال بالنصف بأن يبقى في غيبوبة، لكن كما ترى هنا (يفتح صورة طبقية) إن عقله بات يسترجع جزءً من ذاكرته. على الأغلب ستعود ذاكرته كاملة خلال شهرين إن شاء الله
- أشكرك
- العفو

***

(وفي ليلة العيد، بكيت بكاء طفل على دميته الممزقة، تعرّقت عيناي حزناً على وحدة روحها، نحبت وصرخت، شهقت بصمت خانق، حصرت الكلمات كحطب مشتعل في حنجرة باتت تغلي، وتركت قلبي يهدم جدرانه الأخيرة مثل محتّل وأبقى أنا كصاحب البيت يبكي على ركامين. أدخل غرفة في العراء لأستلقي فإذا بالحزن يستلقي بجانبي ليداعب روحي الباردة)

في حين ذلك كنت قد بدأت الدخول للعالم الافتراضي، ذلك الذي ينتقده الجميع. لقد كنت مثلك أنت الذي تكرهه، ولربما لا زلت أكرهه لكنني مدينٌ له بكل امتنان.

كانت ليلة في آخر تشرين الثاني، كنت كما قال المثل: في آخر تشرين ودّع العنب والتين، وعندما ودّعته واستقبلت ما هو ألذ من فاكهة الأرض، ريم.

بدأ الأمر عندما كنت متصلاً بإحد مواقع التواصل الاجتماعية والذي كان استخدامه الوحيد هو طرح الأسئلة، حينها كنت قد بدأت أدخل في نقاشات أدبية، وفي حينها كنت قد كتبت عن كتاب اسمه السر.

فبدأ شاب متعصّب بالحديث، فما كان منه سوى أن يكفّرني، وتذكرت حينها عن حادثة مشابهة مع صديقي الأكبر سناً، حينها قال لي بأنه من الجهالة أن تناقش جاهلاً، فتركته.

لكن ما أثار فضولي هو تلك الفتاة التي باتت تكتب وكأنها تصرخ افتراضياً مدافعة عنّي، ضحكت كثيراً حينها، وسألت نفسي كيف لفتاة لا تزال بعمر الزهور أن تحدّث شاب قد أنهى دراسته الجامعية بهذه الطريقة. رغم أن حديثه لا قيمة له لكنه يبقى (أكبر منها) وكما فهمنا بأن الأكبر يعني أنه يفهم أكثر منك!

حينها كتبت لها كلمة واحدة فحسب: أشكرك. وكلمة الشكر هذه اتخذت مواضيع شيّقة لا تنتهي، سأخبرك لاحقاً كيف سار الأمر.

***

في الأشهر الأولى اكتشفت روحها وتعرجاتها، كانت رائعة حتى أصبحت بمثابة أخيها الذي ينصح أخته الصغيرة ويستمع للكبيرة، لقد كانت ريم كليهما.

***

ويمرّ برد الشتاء ويدفئ وحدتي صوتها، نعم عزيزتي أنا معك ذلك الشاب الذي لا يخجل من دموعه، لا يسكت عن رأيه، أنا معك أصبحت أنا، تركت عذرية الصمت، أنت تلك التي أجبرتني على البوح بإرادتي، وهل يكفي أن أخبرك بكل هذا؟ لقد أحببتك منذ الوهلة الأولى لكنني أبيت أن أترك لهذا القلب الضعيف أي حجة بأن يحب غيرك وقد وهبك نفسه.

***

(عليك أن تعتذر، ربما ستكتفي منك بعذر) هكذا ردت ريم على تصرفي مع قمر، وأضافت (اللي ما بعرفك بجهلك).

ماذا سيجهل يا عزيزتي، كنت حينها ذلك المخبول الذي لا يزال جاهلاً بكل شي.

والآن عزيزي القارئ بما أنك لا تتقبل فكرة شاب صغير دخل بمفهوم العشق لنتخيل معي بأنه في الثالثة والعشرين ولنكمل الرواية على هذا الأساس...

***

لماذا كلما رغبت بتصفية أفكاري يتصل بي أحدهم! يقولها ثم يحمل هاتفه بهمجية

- ألو
- أهلاً، من المتكلم؟
- أنت بلا شعور، قمر تبكي منذ أيام على غبائك
- من أنت وما أدراك بذلك؟
- أنا صديقتها هند، وأنت ذاك الطفل الذي يتصرف دونما تفكير أليس كذلك؟
- أعتذر، لم أدرك نفسي حينها
- الاعتذار لن يكفي قمر فهي أعند من صخرة ولو كان هناك أمل لانتهى بينكما

(تنتهي المكالمة)

***

وكأن الهواء يتناقص تدريجياً، علي تجيد الهواء، البحر هو حلّي الوحيد، ارتدي حذائي ثم اخرج، لا يوجد أحد في مثل هذا الوقت، ما بعد منتصف الليل، اجلس على الرمال الرطبة، أفرغ كل شيء من عقلي، أفكر باللاشيء، بالفراغ ومع إنصاتي لهدوء البحر، ادخل في حالة التقاء الكون، أعود إلى كل شيء جميل في طفولتي، إلى أحلامي التي توقفت عن إتباعها

منذ سنوات. أصبحت يائساً في المستقبل، يشتد موج البحر كما تشتد الذكريات المؤلمة، ضجيج في كل مكان، ضجيج متسارع في صدري، ضجيج مؤلم مزعج يحرك كل شيء بقوة، حتى أفتح عيناي ليعود الهدوء. تخلصت من طاقتي السلبية، اتنفس الصعداء، اشعر بتحسن...

(وكأنني ورقة فارغة في رواية تنتظر أن يكتب عليها، فأقبل كل شيء قد يكتب وإن كانت محض خربشات من طفل صغير)

***

- اسمع يا هذا، هذه الغرفة للأقارب من الدرجة الأولى لا يهمني إن كنت صديقه!
- يصرخ: لكنك لا تفهم، أنا كل من تبقى له
- ليس شأني، والآن لتغرب عن وجهي وإلّا طلبت الأمن

***

هل تذكر هذا يا صديقي، أخبرني أنك تذكر قمر، أنك تذكر ريم، أو أي أحد!

- آه أظن أنني تذكرت مسرح، نعم هذه قمر
- أخبرني، أخبرني كل شيء!

كان ذلك في بداية سنة جديدة، الكل يحتفل بما يمتلكه، أما أنا كنت أحتفل مع برامج تلفاز مقززة!، ليس بالأمر الهام، إن المهم في ذلك أنني في ذات حين في تلك الليلة الباردة، رغبت بأن أتمنى للجميع سنة جميلة، ولكن أي جميع؟ فما كان منّي إلا أن رفعت سماعة الهاتف واتصلت بقمر (لا تسأل من أين لي الرقم، سرقت كشف أسماء الفرقة)

- كل عام وأنت بخير
- من الذي يتكلم؟
- لقد نسيت من أنا
- حسناً، وداعاً
- لا أرجوك، انتظري للحظة
- لماذا تتصل؟
- لأنني أريد التحدث اليكِ، أنا أعتذر، هذا كل ما أريد
- أنا لا أريد مسامحتك ولا أريد التكلم معك، لا تتصل، حسناً؟

لربما تتساءل، بكل هذه البساطة والفظاظة كانت المكالمة؟

نعم عزيزي كانت كذلك، أنا لا أدري لما أذكرها لك، إن لا قيمة لهذه المكالمة في شيء، لا أدري هذه أشياء تخطر في ذاكرتي الضعيفة.

انتظر...ربما أذكر المسرح، نعم أذكره! (حدث هذا عندما كنت على عتبة اللامكان، عندما قارب مخزون الأمل من النفاذ، حتى ظهرت، حتى خرجت من بين النبضات الخافتة، ترقبت ذلك الحضور حينها والذي أصبح كصدفة تحبكها خيوط القدر، كان ذلك بالقرب من مسرح المدينة شعرت وكأنك قطْعاً تخرجين من بين الجموع كلها فقط لتنظري بعيني.

هَمَسَتْ لك هند بوجودي حينها، لا لم تته عيناك والتي وَجَدْت مكان جلوسي المقابل منهما من بين تلك الجموع، وكأن القدر حقق رغبته بأن تبقى عيناك مستقرة دون أن تشيحي بهما، بدأت أؤمن حينها بالصدفة المقدرة يا قمر!)

لم أكن أعلم بأنك عازفة حتى ذلك اليوم، عندما رأيتك تحملين كمانك، لمستك لذاك الكمان كانت أشبه بزخرفة له، كانت أجمل من موسيقاه...

عندما دخلت منزل أحمد للزيارة، كانت نبضات قلبي تنتفض كانت رعشات قوية من أخمص قدمي وصولاً إلى صدري، لأقول حينها مخاطباً أحمد:

(رُبَّ صدفةٍ خير من ألف ميعاد)

***

ها قد طرق المساء أبواب السماء، ها قد حلَّ ضيفاً على أعتاب منزلي الذي يملؤه صدى السكون، ريم (عزيزتي ريم)، كيف أمسيت؟ كيف لي أن ألتمس منك عذراً على غيابي المعتاد؟

- أهلاً قيس، ما بالك تتصل في هذه الساعة المتأخرة؟
- تشتاق كلماتي لمن يحبها فعلاً
- وحدها كلماتك تشتاق؟
- بل كل ما يسكنني يشتاق لوجودك بجانبه
- هل تحدّثت إلى قمر؟
- أقول لك بأنني مشتاق فتذكرين أخرى! لا لم أحدّثها حتى الآن
- أعتذر لكنني تعبة، سأحدّثك لاحقاً
- وداعاً

يكفي أن تزرع ورودك في داخلي ثم تتركها لتذبل! أحبك قيس، ولكنني لا أرغب بأن أكون منفاك الذي تهرب إليه كلما أرهقتك قمر بتجاهلها لك، يوماً ما ستعود نادماً ومشتاقاً، ستعود بخيبة مهداة منها، وسأكون هناك أنتظرك، يوماً ما ستكون كلماتك لا تذكر أنثى سواي، وكُلّي أملٌ بذلك.

***

- أخبرني، كيف تشعر؟
- أشعر وكأنها المرة الأولى التي أتنفس فيها، لكنني أخشى أن يكون ذلك بلا معنى
- اتّبع قلبك، عليك أن تنضم لذاك المعهد، فرصتك الأخيرة لتتقرب من قمر
- لكنك سترافقني، أليس كذلك؟
- بالطبع

هاجس خوف ينتظرني خلف هذا الباب، لحظات تفصل بيني وبين قمر، بين الحاضر والمستقبل، بين صمت وحديث

النسيم بارد وجسدي المغطى يرتجف دون داعٍ، سيمفونية أندريه ريو تعزف خلف هذا الباب (دخول الجنة)، كانت كفيلة بأن أرتعد خشيةَ المستقبل، خشيةً من أن يكون دخولاً إلى الجحيم، وها هي يداي تلامس ذاك الباب الحديديّ، أتراها تجلس خلفه، تترقب الشخص الذي يباغت غربتهم، حتى أخرجني أحمد من تلك الأفكار ليقول كلمته: تحرّك!

كأن الكلمات تساقطت مني عند الدخول، كأن نظرتها البريئة كبراءة النور في ظلمة السماء، وكأن كلماتي غرقت في ذلك الكون، اتّسعت عيناك

حينها وكأنهما تعجّبتا من حضوري دون موعد، ها هو القدر يصادفنا مجدداً دون أن نستعد أو أن نرتدي معطف (لست مهتماً). كانت عيناك بعيدة قليلاً فاستطعت أن تطيلي ناظريك دون أن يلاحظ أحد، لكن نظرتي كانت سريعة، لثلاث ثوانٍ تقريباً حتى أصرف عنك أعينهم، أشحت بالنظر محدّثاً ليث

- السّلام
- وعليكم السّلام كيف لي أن أساعدك؟
- عذراً؟

حتى تداخل صوت أحمد متداركاً الأمر:

- وجد صديقي إعلانكم لدروس الموسيقى، لذا حضر ليسجّل عضويته معكم

أدار ناظريه ليسألني:

- بالطبع، هل لي باسمك؟
- اسمي قيس
- عذراً ولكن صوتك منخفض
- قيس اسمي قيس

- أرأيت كيف كانت تنظر لك؟
- كان في عيناها شيء من الاعتذار، وشيء من العتاب، كان في عيناها صور قديمة حزينة على ألوانها الغائبة، كانت مندهشة من جرأة ذاك الطفل المجول، نعم رأيتها كيف كانت نظراتها متسمرة، رأيت كيف أن ثلاث ثوان كانت لانهائية، وسمعت صوتها ينادي خفية على صديقتها لترى من حضر

***

هكذا مرّت أيام تلو أخرى، مترقباً إشارة من القدر، مترقباً لاتصال يسقي روحي العطشة، لتلك الكلمات التي تحدد لي موعداً آخر مع قمر، صدفة من القدر!

هكذا مرّ اللقاء الذي دام لدقائق، هكذا تساقطت دمعة ممتزجة ما بين حزن وفرح، وهكذا يموت المرء عشقاً، فسحقاً! لقلبٍ لا يهدأ ولا يسمح لبصيص الأمل بأن يدخل ذاك المسرح، مسرح أسميته كون القمر...

كم صفحة تلزم حتى نلتقي مجدداً؟

وكيف أطلب أن لا تشيحي لحظة بناظريك؟ فإنهما أملي الوحيد في هذا الوقت...

ها قد وصلت (مبتهجاً بعض الشيء) كان الأمر مثل حكاية ليليّة، لكن النهاية لا تزال في ظلالها، ها قد أضاء عمود الإنارة المعطلّ، أخيراً سيحدث أكثر من نظرة!

(في عينيها رأيت الحب والموت في آن) باولو كويلو

وصلت منزلي أرتجف تعباً، توتراً، وخوفاً، تمايل الأحلام، يختل توازنها ما بين زاوية السقوط وزاوية الارتكاز، ترى على أي ضفّة سأكون، ما زالت أفكاري تقبع في زنزانة ذاك المكان، لا يزال أحمد يسير بجانبي ولكنني كنت أسير في زوايا تلك السيمفونية، حتى وصلنا الباب لأطرقه بغباء، وكأنني ظننت أن حلمي بمنزل غير فارغ قد تحقق

***

ابتسم على حماقتي ثم ادخل لأجد ريم وزملائي في العمل. كان المنزل به هالة من السعادة التي زينت بها الجدران، فتصرخ ريم: كل عام وأنت بخير!

إنه عيد ميلادي إذن، أربعة وعشرون سنة، لا زلت شاباً رغم كل شيء.

(كان ذلك حلماً)

وها هي السماء، تبدل فساتينها الثلاثة كعادتها: فتبدأ بزرقتها العذبة، لتكمل يومها بأحمرٍ خافتٍ ترتديه بخجل، حتى تغفو بحريرها الأسود الجذّاب، وها هو الليل يتنفس بصخبٍ مزعج على عكس أنفاس الصباح، وها هي الروح التي باتت تتشت ما بين فستان وآخر، تتقلب بين وهلة وأخرى، بين امرأة وأخرى

ولكن، أين نقطة الالتقاء!

***

سأقرأ في هذا الكتيّب حتى أنسى أمر الاتصال، الانتظار ينهش كل جزء منّ جسدي، لكن هذا الكتيّب به شيء منك

(في ثناياه ترانيم صوتك الحادة وبحته الخافتة، أستنشق منه بقايا عطرك الذي أسميه هذياناً، كما أشتمه في زوايا المكان الفارغ منك، محرابك الصباحي...وأينك منه يا قمر؟)

- مرحباً
- أهلاً من المتكلم
- أنا ليث معلم الموسيقى
- ليث كيف حالك؟

- بخير، اتصلت بك كي أعلمك بموعد اللقاء الأول
- حسناً
- نراك غداً
- شكراً لاتصالك

نراك؟، ستكون قمر بين الحضور إذن؟

أرجو ذلك، أرجو ألا أفقد توازني في حضرتك يا قمر!

باقي للقاء ليلة ووهلة تذكرت حينها بأنني لم اشتر الكمان حتى الآن فأحمل مفاتيحي باحثاً في شوارع المدينة عن متجر لبيع الآلات الموسيقية، لكنني لم أجد أي متاجر مفتوحة في منتصف هذا الليل، ولا يمكنني الذهاب للبحث في الصباح الباكر علي النوم لساعات طويلة كي أكون بفكر صافٍ.

أعود للمنزل حاملاً خيبة أجلس على شرفتي منصتاً لحديث أفكاري، تذكرت أحمد، كان له صديق يعزف مقابل شرفتي أقف حينها وأنظر، كيف سأطلبه منه هذا قوته، أحمل محفظتي وأنزل

أقول: (مرحباً، أنا أسكن في المنزل المقابل، أعلم أن هذا قد يبدو غريباً لكن هذا الكمان الذي بيدك قد يغير موازين حياتي لذا أرجوك سأعطيك مقابله مالاً وأعدك بأنني سأعيده في الغد)

يمد الكمان بيده دون أن يقول كلمة، أخرج محفظتي، يقول: لا أحتاج المال فقط افعل ما عليك فعله، في الواقع هذا اغرب ما حصل في حياتي، وكأن الله سخر وجوده في مثل هذا الوقت، صدفة مقدّرة مثلما أسميها

***

إن قصتي مملّة أليس كذلك؟، لا أعلم إنني أتحدث كل ما أذكره وإن كان كذباً!

ذهبت بالكمان المزخرف بالأمل، الأمل الذي كان بقلبي، كان صعودي لثلاثة

درجات كالصعود إلى الهاوية.

دخلت القاعة، حتى وجدت قمر على بعد أمتار، تباطء الزمن في تلك النظرة، وتسارع نبضي. نظرتها كانت تحمل رواية، عيناها كانت تقول لي: ماذا تفعل، كيف تتجرأ، أنا احبك

دخلت القاعة، جالساً على أول كرسي تلمسه يدي، لم أستطع الوقوف، أتعرفون ذاك الشعور؟، قلبك كخطوات خيل في المعركة، وقدماك كعجوز يبلغ الثمانين، شعور رائع ومؤلم في آن ما إن طلب ليث من الحاضرين صعود المسرح للمباشرة في العزف، كما قال ليث:

الموسيقى شعور، كيف تجلس قمر طوال الوقت وعيناها لا تبتعد، للحظة كنت اشعر بالموسيقى تأخذني فعلاً فوق الغيوم، عزف مقطوعته كاملة وكنت أجد نفسي تلتقي بكون قمر.. تعلمت اللمسات حينها، النوتات، تعلمت تدارك الخطأ، حينها وتعلمت أن أكتب عيناك بدلاً من عينيك في حالة الجر، فأنا أخشى أن أكسر شيئًا من جمال عينيك يا قمر من جمال نظرتك تلك التي أدخلتني حالة الهذيان والجنون

انتهى دوري، ليصعد دورها على المسرح، الآن تبدلت نتائج المعركة، لم تعد قمر التي تراقب، اجلس في الصف (الثالث) آخر كرسي مستمتعاً بالنظر لذاك الجمال، تكسرت معها المقطوعة، بدت جميلة رغم ذلك تكسرت المقطوعة وابتسامة صادقة، غامضة لا تغادر شفتيها

(واقتحمت جلسة الهدوء بضجيج وجودها، وكأنها كانت تسرح ثم ما إن لبثت حتى رفعت عينيها لتأتي بحديث الأعين...في ذلك الفراغ المدلل وجدت كلمتي الضالة: أحبك!

أو تعلم يا صديقي، وكأن عيناي نقلتا تلك الرسالة إلى داخل صدري (على اليسار تحديداً) فأصبح ذلك الطير يضرب قفصه بشدّة حتى تعالى صفير

حبه لينتشر في فروع جسدي فيملؤه بمحلول غريب، فأصبح جسدي منه يرتعش حتى إذا رحلت فهدأ)

ما إن انتهت من ذلك الشعور، حتى ودّعتها بابتسامة حزن وحب، كانت المشاعر مختلطة، ذلك اليوم وفي حين عودتي أستلقي على السرير محدقاً بالفراغ أستمع لموسيقى وأغان انتقيتها مسبقاً والتي تساعدني على التقاء الكون تلك، أحدق كالعادة دونما توقف مستمعاً، لم أدرك سوى كلمة واحدة (القمر) في أغنية فيروز (خذني بعينيك) لربما لذكرها قمر عندما قالت خذني بعينيك واغرب أيها القمر، تقاطعني طرقات ثلاث على الباب (ثلاثة) استمر الأمر بضع ثوان حتى رددت إنني قادم، لم أرغب بالوقوف ليس كسلاً إنما نفسي لم تسمح لي بذلك، فتحت الباب بعد وهلة حينما وجدت أحمد، فيسأل عن سبب تأخري أجيب ساخراً: لأن السماء لونها ازرق، ترفض المغادرة يا أحمد، ترفضه بشدّة

رفضت المغادرة من تفكيري وغمرتني بنظراتها، يا لفرحتي آنذاك، ويا لحزني آنذاك

***

دخلت القاعة هذه المرة، حتى وجدت قمراً أمام ناظريّ، كانت برفقة غدير، تسمّرت قمر للحظة، لم تتحرك من مكانها، وعيناها تسمّرتا على ناظراي، آه كم أصابني من الفرح في تلك النظرات.

أدركنا الواقع كان جسدي ينتفض، يرتعش لاحظ الجميع ارتعاش يداي، دخلت القاعةما إن بادر أحد الأصدقاء بالحديث معي

- قيس، كيف حالك؟
- أنا بخير أشكرك، ماذا عنك؟
- أنا بأفضل حال، لماذا رعشة اليدين؟
- لدي مرض عصبي

بعد تلك الكذبة، بدأت قمر باستراق النظر، ثم دخلت، ببطء يستفز كل نهاياتي العصبيّة، جلست قمر على عرشها، بكحلها ونظرة الغموض، دخولها كان لافتاً للانتباه أو بالأحرى لافتاً للاهتمام، اهتمامي أنا، هي التي لا تحادثني سوى بعينيها

(بعض الأماكن تروي الحكايات، منقوشة هي بتفاصيلها على كل جانب، دافئة كشمس صباحية، نحجولة، ممتلئة بالحب مثل عاشق، وجميلة كلوحة

رسمت بعناية، أوراق أشجارها بألوان مختلفة ترمز للهدوء، لا مكان للصخب والضجيج، لكنها الأنسب للذاكرة)

عدت للمنزل وما غابت عن خاطري للحظة وكأنها المرة الأولى التي أرى فيها قمر، وصلت وحاولت الاتصال لكنني خفت من ذاك الرنين الذي كانت أعصابي لعبة بين يديه، لم أتصل لكنني بعثرت كل شيء بكلمة وأرسلتها لقمر

(شكرًا)

مرّت دقائق حتى أضاءت شاشة هاتفي، رسالة من قمر، فتحتها بين خوف وحب، كانت رسالتها

- تشكرني على ماذا؟
- على وجودك
- أرجوك دعني وشأني

مر أسبوع ولم تظهر قمر، كان القمر محاقاً، عيناها كانت تخفي حديث لا ينتهي لست أخادع نفسي لكن عيناها تشرح كل شيء

ها هي الأرض تدور حول الشمس مراراً وتكرار، وأنا الأرض الذي يحتاج القمر ليبقى في توازنه، حتى لا تقصر أيامي في غيابه، ولكنه يحدث كلما غبت يا قمري أن تقصر أنفاسي ويضطرب قلبي...وماذا عنك؟

***

أنظر إلى نفسي في المرآة أبتسم وفي داخلي حزن، حزن جميل ورغبة بالتجدد في كل شيء، كنت أرغب في التغلب على مخاوفي، الخوف، ذلك النحّات الذي يتفنن في داخلك حتى يكسر كل جزء فيك والفرق الوحيد أنه ينتج تمثال مشوه

(نعم أناقض نفسي فإنني أكرهك وأحبك، منطقي دائماً يقول أكره لكن قلبي يقودني دائماً لطريق الهلاك في عيناكِ، نعم عمري خمسة وعشرون عاماً ولكن روحي لا تتسع بجسد يقدر بعمر حديث، إنما هي كون قديم شاسع وفيه الجنون وفيه الهدوء أيضاً)

(أطراف الكلام قد يعطيك صورة كاملة مثل قول معبد، فذلك يعطيك صورة الصلاة والمقاعد الشموع والمساجد كلمة معبد وحدها تزين العبادة، وكلمة قمر وحدها زينت سماء أفكاري)

ذات يوم تحدثت مع قمر، أعاتبها على حزنها الذي طال وعلى أن تعطني فرصة واحدة فقط لم تجب قمر

(كم سئمت من حديث ممل مثل هذا، ألا يمكنني أن أتركه؟ حسناً سأكمل)

ارتميت على الكرسي الخشبي وكأن جسدي أصبح ثقل لا تحمله قدماي، يومها لم أتحدث حتى وصلت المنزل

هل كان عليك يوماً أن تغير ملامح وجهك من شخص يبكي إلى شخص يبستم لأنك لم ترد أن يراك الآخرون ضعيفاً، هل كان عليك أن تتحاشى النظر في المرآة وكأنك فجأة كرهت نفسك كرهت وجودك، حاولت بشدّة أن أنسى قمر حاولت بشدّة يا قمر لكنك كنت مزروعة بين ضلوعي وكلما حاولت انتزاعك وكأنني أحاول انتزاع ما في صدري، كنت أصارع نفسي نصفي يرغب بك ونصفي الآخر يكرهك

حاولت أن ألتقي بالكون لكن الكون كان منشغلاً بك

(لا أدري لما نسيانك أمر مستحيل فعند القراءة أجدك بين السطور وعند الكتابة أجدك العنوان)

باقي أربعة أيام على عودة الموسيقى، باقي أربعة أيام لتنعدم المسافة بيني وبين قمر ليلة بعد ليلة أفكر في الأمر، فيما فعلت، هل تستحق قمر كل هذا؟

***

قررت داخلياً بأنها لا تستحق سأبذل قصار جهدي بأن أنسى وجودها قبل أن يبدأ الحفل كنت أتدرب على طريقة حديثي للمرة الأولى على المسرح، أحدث نفسي بشجاعة وصوتي يكاد أن يصرخ لكن أوصال الحديث تقطعت عندما حضرت قمر، تسمّرت أمامي ونظرت تلك النظرة نظرة تدخلني مرة أخرى في الشباك، نظرتها المعتادة الخاطفة كانت كفيلة بأن يزداد توتري، مرّت دقائق حتى بدأ الناس بالحضور، قمر حضرت لتنظر ثم لتغادر وكأنها تتعمد ذلك. حضرت سارة بعد ذلك وكانت كلمات الترحيب تتلى وأنا منشغل في عينيها، قمر ما زالت عيناك تتعبني أرجوكِ أخرجي من ذاكرتي من نفسي ومن قلمي!

أستيقظ وفي داخلي بصيص من الاشتياق، أستيقظ على هدوء مرعب فأنا احتاج الحديث يا قمر وفي حنجرتي يختنق الكلام، قال درويش: هل ندرك المجهول فينا؟ ولكنني أقول هل ندرك من كان فينا؟ هل ندرك ما توقف الزمن من أجله؟ وبالأخص هل أدرك قمر؟ وكأنها طيف يراودني في

عزلتي ثم يرحل، تقول ريم بأنني لم أحب قمر لربما لم أحب سوى غموضها المعتاد، وكيف سيبدو الأمر لو أنها اقتربت أكثر فأكثر فأنا لم أتعرف عليها بشكل جيد، هل يبدو القمر أجمل في البعد؟

***

- حسناً، لتنتقل للنهاية إن الأمر فعلاً يثير الملل!
- أذكر أنه كان انتصاف أكتوبر، كانت الحفلة الختامية للمعهد، كنّا قد أنهينا تعلّم الموسيقى، وحينها ما إن انتهيت من أول مقطوعة علمت بأن مكاني على الأرض، إن القمر مرتفع جداً يا صديقي! أنا أخشى المرتفعات!
- غادرت؟
- نعم وأذكر أن هناك من نده باسمي ولكنني لم أجب، والآن أخبرني...هل تريد أن تستمع للجزء المشوق من القصة؟
- نعم بالتأكيد، لقد تأخر الوقت
- يمكنك النوم هنا، دعني أتحدث!

(كانت عيناه تسأل: أينهدم الليل في نظرتك تلك؟ فتجيب هي بصمت: بل يطول ويطول ويطول...)

أول يوم في الجامعة بكون شوي صعب، بس شوي؟

لا بصراحة بكون كتير، بس مش مهم يا صاحبي، المهم انك كنت معي، آه صح انت ما دخلوك...قال ما معك بطاقة، يلا مش مشكلة خليني أحكيلك عن اللي صار جواه

***

(وهل تطرق الأقدام طريقاً للقاء الأعين؟)

كان الأمر أشبه بمعجزة بلا أنبياء!.. أتعرف كيف يكون أول لقاء بعد سنين من الأحاديث التي لا تنتهي؟

هكذا كان لقائي بريم، وحتى أكون قد قلت الحقيقة الكاملة...إن ريم غيرت بي الكثير

أذكر أن الشمس كانت حارقة، وكدت أنسى سبب وجودي...إني في أمور الحب أشعر وكأنه رهاب مسرح شديد!

أذكر أنني اتصلت بريم في الساعة العاشرة، على أن ألقاها عصراً لكنه يبدو أن القدر كان عجولاً...تخيّل معي عزيزي، ساحة بيضاء واسعة، فارغة من كل شيء سوى بضع شجيرات موزعة على كل جانب، في طرف شاب

يحمل هاتفه يترقب اتصال، وفي الجانب الآخر فتاة تحمل ابتسامة بلهاء مرحة على وجهها، تنتظر من ذلك الخجول أن ينظر ناحيتها، تخيّل مجدداً إنه يبحث في هاتفه عن رقم هاتف تلك الفتاة، إنه لا يرى أنها أمامه...حتى قالت كلمة واحدة، وكأنها انصبّت في شرايينه فتصلب جسده، إنه لم يجرؤ حتى على النظر في البداية، لقد عرف من تكون من صوت صفير البلبل!

- قيس! هذا أنت!
- أهلاً ريم، أهلا عزيزتي كيف حالك!؟
- بخير، صدفة جميلة، لربما حان عصرنا
- يرسم على وجهه ابتسامة بلهاء: نعم ربما نعم
- حسناً أراك عصراً، لا تنسى أن تبحث جيداً عن الرقم، انه في آخر مكالمة

أعترف لك يا صديقي بأنني أكملت طريقي أرتعش، لقد أصابتني، أصابت كل شيء، لا تضحك! لقد كانت ثلاثة سنوات ولا أعتقد أنها افتراضية فحسب!

اقترب سأخبرك بسر، لقد كنا نرقص في تلك الرمال البيضاء، لم نكترث للتناثرات، إن كل أزرق يلزمه القليل من البياض!

إنك لا تعرف معنى أن يكون الإنسان بلا إنسان!...حينها ستعلّق كل آمالك وأحلامك في عنق أحدهم وستفعل أي شيء حتى لا يغيب عنك لحظة.

أتدري يا صديقي، كنت مثل كتاب مهمل تكاثرت عليه ذرات الغبار فحملته ريم ونفضت عنه غباره ملقية عليه رذاذ عطرها، والآن أخبرني بربك كيف لي أن لا أطلعها عن ما في داخل هذا الكتاب؟

حينها لم أستحي وقلت لها: إن عيناك في نور الشمس تبدو أجمل، لو أضاء الزيتون لكان بمثل جمال عيني

***

- متذكر يومها شو صار؟، بعد ما طردوك لأنه ما معك بطاقة شفتها لريم، يمكن بعدها ضليت نص ساعة صافن اتذكر ملامحها، الوقت، لبسها، وحتى شكل الساحة، خربطت كياني، فيروز لما غنّت بنت الشلبية كانت بتقصد ريم!

- آه متذكر، حتى يومها ضليت مستني برا الجامعة وبس طلعت قلتلك: انت بتشوف حبيبتك وأنا ناطر بالشارع

- وقتها كيف عرفت إنها رح تكون حبيبتي؟

- يومها كتبتلك رسالة احتفظت فيها لليوم اللي رح يصير هالشي ذكرى وصارت ذكرى لهيك خذ شوف...

(وإني لأعرف وقتما ترتعش توتراً أنك تحب، كلما صادفت من تحب يرتجف قلبك فتظهر الرجفة على جسدك، تماماً مثلما رأيت القمر أول مرّة!)

***

- صباح الخير احمد، معك ربع ساعة تكون جاهز بدك تنزل معي عالجامعة

- شكلك ما لقيت حدا ينزل معك؟ طيب ربع ساعة وبكون عندك

وهكذا مرّت الربع ساعة والنصف ساعة والساعة حتى حضر أحمد، خرجا في وقت متأخر من مدينة جنين وفي الوقت المتأخر أعني السابعة والنصف صباحاً، في الطريق كان احمد يساعد قيس فيما قد يقوله عندما يقابل ريم

للمرّة الأولى بعد ثلاث سنين من التواصل عبر شبكة الانترنت، وهكذا تم الأمر...

أذكر حينها أنني رأيت القمر والشمس في ذلك الصباح كانا متقابلين، حينها قلت لك: والآن يلتقي بحر موسى وتلتقي فينا السماء وكأن الشمس يا عزيزي ترسل تراتيمها لمدينة خاوية من كل صوت فتدب فيها الحياة!

كان الأمر في أواخر آن في حر صيف جاف (آب اللهّاب)، كانت السماء صافية والقلب يشتكي طول اللقاء، قالت بأنها ستقابلني عصراً، وحلّ عصرنا مبكراً...

تركتها بضع ساعات ولكن جسدي لم يكف عن الخفقان!، كما قالت: أشعر وكأننا تراقصنا، شعرت بأن كل شيء تراقص في داخلي وحولي...

(وكأننا تراقصنا على إحدى سمفونيات باخ، كان الأمر صعباً ولكنه لم يكن بالمستحيل، أنا لم أؤمن معك بالمستحيل، وكيف يكون الريم مستحيل!)

بدأت حينها أعرف ما يعني الاشتياق، كان يختلف كلياً عن قمر، لكن كان حبي لريم ينبع من كل قلب، لقد كان حبي لها عذري، حبٌ حقيقي، ولكنه كان.

***

ومثل ما انت بتعرف، صرت اشوفها كل يوم، يومين حسب المحاضرات يعني، وكنت اوقف احكي معها كل اسبوع مرة أو مرتين بس كانت حسب صاحباتها اللي ضلن لازقاتها طول الفصل!

المهم...ضلينا على هالحالة لحتى اجا يوم حفل استقبال للطلبة الجدد، إلنا يعني...

كل أصدقائي وزملائي راحو وكمان زميلاتها، بس احنا ما رحنا، كنا واعدين بعض نوقف سوى شوي لأنه كان النا زمان مش شايفين بعض، كان التاريخ 28 أيلول، اتفقنا نلتقي بكلية العلوم الإنسانية الطابق التاني، وفعلاً تم اللقاء...

(وعلى أبواب كل فجر أدعو ربي في محراب مثل زكريا، وأقول: ربّي إنّي وهن العظم منّي واشتعل القلب عشقاً)

- شايفة! حكّلك أنا اطول منك
- ضحكت وقالت: طيب شايفني رح ازعل يعني، زوجي اطول مني ليش ازعل!

هون بتعرف شو رجفت، أول مرة بتحكيلي هالكلمة، مع انه قلتلها كتير أنا بس ربي يقدرني وأخلص دراستي بدي آجي واطلبك، بس بعمرها ما كانت تحكي اشي، حتى هديك اللحظة...

- بس حليانة ما شاء الله
- طيب بدك شي هينا شفنا بعض، بشوفك بكرا
- بس انتي قلتي رح نقعد سوى دقيقتين
- لا ما بقدر...

وبلشت احكي معها وافتح مواضيع، وما كانت تقبل تقعد، مع انه بعيد عني المقعد على قبالي بس بعيد...ضلينا نص ساعة نحكي بدل الدقيقتين، بعرفش كيف فتحت المواضيع بس المهم ماطلت لحتى هدي قلبي شوي...

***

(وأنتظر كل فجر حتى أرى صورتك تتجلى على شاطئ السماء)

في ذلك اليوم قالت لي: أنت بحر

- وكيف ذلك؟

- انظر جيداً وتمّعن، إنه متقلب، كذلك أنت!...يضرب الصخور فيعلو صوته ألما ولكنه يحتمل، أنت مثله! تبقى على مد وجزر، تهدئ لحظة ويجن جنونك عشر أخرى، أنت يا عزيزي أكبر من ثلاثة حروف مثله أيضاً، لكنك تختلف معه بشيء: أن داخله ساكن وخارجه ضجيج وأنت انقلابه...

***

وقتها كنت لابس أزرق، يمكن عشان هيك حكّلي انت بحر...

المهم تاني يوم شفتها بس كانت أقل من دقيقة وكان بعيونها في اشي غلط ما عرفته إلا بعد شهر...

كانت لابسة بلوزة صفراء منقطة بأسود، بس شفتها هيك بعتت رسالة:

- يا نحلة قرصتي قلبي وكهربتيه بطلتك
- انت مجنون!
- مجنون من لما عرفتك، يلا لاقيني بالكلية
- ولك صاحبتي معي
- طيب حكيلها دقيقة وبرجع، بس كلمتين عالماشي
- اوك اسبقني

(وأنا كإبراهيم يرغب أن يطمئن قلبه، وقلبي لا يطمئن سوى عند رؤيتك)

- قيس يا عيوني انت، انت بتعرف حكي البنات مش ضروري تشوفني كل يوم
- بس أنا يا ريم ما صدّقت ولقيتك، كيف بددي أرجع اضيعك؟!
- ما تخاف انا هون على طول
- وعد؟
- وعد، يلا ليش جبتني؟ حكيلي مشان ارجع
- بدي ازبطك

هون ضحكت كتير يا احمد ضحكت ضحكة كأنه شفت شي من الجنة وقالت: بس انت مزبطني!

- طيب اذا هيك ما بدي إلا تنتبهي على حالك
- وانت كمان، بس ارجع بنحكي

***

كانت تلك آخر مرة نلتقي بها، لو علمت ذلك لما ترددت أن أرقص معها على سيمفونية زوربا، لكنها فعلتها ورقصت وحدها...

صرخة بداية السيمفونية أعلنت ضجيج روح جديد، أصبحت أيامي تمرّ وكأنها أقل من وهلة، لقد غادرت ريم وغدرت بصدمة دمعت عيني لها..

- بس أنا بشو غلطت معك!؟
- انت ما غلطت، أنا آسفة بس رح اتزوج، وما بدي مشاكل ما ترجع تتصل!
- ولو يا ريم، هنت عليكي بسرعة
- بعتذر، سلام

***

(دعينا نرقص رقصتنا الأخيرة عزيزتي دعي موتي يختلط بريح حياتك الجديدة ولنفترق بلا موسيقى)

(جئت حاملاً هموم الحياة على كاهلي لتخلصوني منها، فما كان منكن إلّا أن زدتم الثقل ثقلاً)

وكأن نفسي سولت لي أن تسأل: هل نسترق نظرة من قدر في حلم؟...فما كان من القدر إلّا أن يعاقبها على سؤال كهذا!

في البداية يا عزيزتي ريم كنت أتسائل: وهل تطرق الأقدام طريقاً للقاء الأعين؟

وأجابني القدر بالموافقة ولكنه أراد أن يمتحن ذاك القلب الضعيف الذي يعلّق أحلامه بعنق شخص وليس بعنق هدف أو على الأقل بعنق شجرة!

لقد كنت يا عزيزتي، وما زلت تلاحظين أنك عزيزتي، كنت لي كل شيء.. كنت أنا اليتيم واتخذتك عوضاً عن كل ذلك، وضعت فيك محاسن الكون المبعثر وأبى الكون أن يرجع قطعة واحدة...

أعلم أني اختصرت الكثير من قصتنا، لأنني سأكتفي بها لنفسي...سأترك الزهر يبكي وحدة، بدونك أنت، لأن أشد الدموع وجعاً تلك التي تخرق القلب قبل أن تحرق الأعين

مرّت الأيام والأشهر وحتى السنين، تغيّر كل شيء سوى ذلك الطفل الذي تركته قبل أن تفطميه يا أماه!

ها نحن إذن يا عزيزتي، مثل جبلين لا يلتقيان إلّا بشعاع مرئي، كمفترق يتوسطه برزخ فلا نختلط ولا تسقى أرواحنا منه...

أذكر أنني حدّثتها ذات يوم لنصف ساعة ثم تركتها لترحل، ثم ما إن أدركت أنني لم اتفوه بكلمة تظهر ذاك الشعاع الخفي الذي يرسل ما هو أسمى من كلمة حب بنظرة وحسب...

أذكر أنني اندفعت مسرعاً أركض خلفها، فهربت... يا صديقي لقد كانت سندريلا!

***

(وفي كل خريف، مع الأوراق التي تسقط نموت شوقاً لأشخاص فارقت أغصاننا وسقطت عنها)

حينها وفي حين عودتي لهذا الكهف وجدت أنوار المدينة منقطعة وكأنها أطفئت حداداً على قلبي الذي أمسى يموت. كنت أغرق في منتصف أمعاء المدينة الخاوية والخالية من كل شيء ومن كل نور، وكأنها حالة أرض بعدما استقرت سفينة نوح على الجودي. كنت أنا هو ذاك الذي ينظر بمرآته ليرى الفراغ يتسع أكثر في عينيه، هو الذي يترك لانفعالات القدر مساحة لتنال منه، لتنفجر بوجهه بلون أسود قاتم!

انظر، أترى هذه الورقة؟ هذا ما كتبته ليلتها:

نامي ولتضربك الشهب ليلاً، نامي ولترتح عينيك التي لا ترح من ان ناظراً إليها، ولتستيقظي غداً كأن شيئاً لم يكن ولتسترقي السمع على نبضات قلب متخبطة ولترقصي مثل زوربا ولكن ليس على ألمك أنت بل على زجاج انكساراتي...

- آه انظر قيس، هنالك شيء مكتوب على ظهر الورقة
- كان قد طلع الفجر حينها

(ولتمت انفعالاتك القدريّة أيها الظل المفتقر لأبعادك الأخرى، وليشتفي لِجري الفيروزي باختفائك)

- إنها شيطانة!
- لترفع رأسك يا صديقي هنالك الكثير في هذا العالم لتراه، الكثير من الملائكة والشياطين

***

- نبضه متسارع، انخفاض شديد في درجة الحرارة، إن جسده يرتعش!، سنفقد المريض، أسرع أيها الغبي!

يقول أحمد بكل هدوء وهو يرتشف الدخان من غليونه: لا تقلق إنه غاضب سيكون بخير

- يغضب في منتصف غيبوبة!، أطفئ سجارتك وإلا اتصلت بأمن المشفى
- إنه غليون! يا لك من حقير!

هكذا كاد قيس أن ينهي روايته في الحياة، لولا شيء ما قد حدث...

- قيس، أرجوك لا تغادرني أرجوك انا هنا انا معك!

صرخت جوليا بهذه الكلمات المتثاقلة على صدرها وكأنها كانت تتنفس الاختناق حتى ارتمت أرضاً مغلقة عينيها

في وقتها كان قد استيقظ قيس...استيقظ وقد تجرد من كل ذاكرته، لدرجة أنه ظن بأن جوليا كانت ممرضته الجميلة وقد كانت...

زوجته

***

الجرأة

- والآن يا صديقي بعدما قلت كل ما لديك من صراحة، عليك أن تكون جريئاً لتتحمل ما هو أكثر من ذلك، لأن الجرأة تكمن في قول الحقيقة الكاملة ولا شك بأن هذا الأمر عليك صعب لتقوله، أنتم الكتّاب شحيحون في إكمال رحلة بحرية، تريدون منّا أن نتقبل أن نُترك في منتصف بحر واسع!

***

- أهذا كل ما تذكره؟
- نعم، كلا، لا أدري، أرى صور كثيرة في عقلي لا أدرك من صاحبها...يسكت قليلاً ثم يردف: أو صاحبتها...

- وكيف تشعر، هل أنت بخير؟
- أعتقد بأن رأسي سينفجر فعلاً.
- لا تقلق أخي، هذا من تأثير الصدمة، مؤلم أن تذكر كل التفاصيل بلحظة واحدة، عليك أن تأخذ فترة للراحة، لتنم الآن وسأعود لأشق عليك ليلاً.

يصدر الباب صوتاً فيعلن إغلاقه، وتعلن عينا قيس نومهما الثقيل المؤجج بالتعب.

حسناً عزيزي القارئ، أعلم أنك ضقت ذرعاً، لذا انظر، أريد منك أن تترك هذا الكتاب للحظة، دعه من يدك الآن ولتحضر كأس ماء، اسكبه حتى النصف ولا تملئه...هلّا فعلت؟

والآن ضعه أمامك، عند شباك غرفتك، لا تنتظر عصفوراً يشرب منه بل لتنظر أمامك إن هذه الكأس ليست فارغة، النصف الذي تظنه فارغاً يمتلئ بضوء الشمس وهذا ما كنت تقرأه منذ البداية ولا شك أنك عطشت فضولاً لذا سأدعك تشرب

***

- جوليا، كيف صرتي؟

- أحسن، قيس؟
- مش متذكر حدا
- رجّعه على الدار
- وأنتِ؟
- أنا إذا ما تذكرني بموت

وهكذا عاد أحمد مع صديقه الذي لا يذكره، عادا سوياً لذلك المنزل الذي يقبع في وسط المدينة، وعندما وصلا كان قد تذكر الكثير من قصته مع أول قمرين له لأن طرق المدينة شهدت أقدام أقمار خطت عليها بخفة وأما عن قمره الأخير أو بداية النهاية كان له طرق أخرى...

ها قد رحل أحمد بعد أن تأكد من وصول صاحبه إلى بيته ولكنه الآن سوف ينام على سريره الواسع لكن قبل ذلك سيرى منزله، فلو كان هذا منزله حقيقة لكان كما أراد كما يحب ويرضى...

يمشي نحو زر الإضاءة ويجر خلفه حبل منعقد بالحيرة، وها قد لمعت الغرفة كلها في آن واحد يلقي بأنظاره بسرعة على كل شيء، غرفة مثل العيادة مكسوّة في البياض، فيقول في نفسه: هل اخترت هذا اللون لأشفى من الزمان أم لأمرض أكثر، إن الحياة أرضعتني هموما وتجشّأت وحدي، لم

يربت أحدهم على كتفي، كنت أرتب على كتفي مواسياً نفسي حتى أغفو، لكن ما هذا إن هذه الخزانة كبيرة جداً لملابس شاب! أنا فاقد للذاكرة لكنني لست فاقداً للشعور، أشك بأني من محبين الموضة، تكفني قطعتي ملابس وحذاء فحسب...

آه لقد صدعت، سأبدّل ملابسي، صورة سريعة تضرب أجواء المكان، إنها ذات الممرضة الجميلة في ذاك المشفى، كنت أجالسها، آه يبدو أنه مقعد خشبي في مكانٍ مرتفع، لا تزال الشمس في صباحيتها، ترتدي فستان أسود طويل، حذاء باليه صغير، وكأنها راقصة باليه حقيقية، لكن ما لون شعرها، أكاد لا أرى سوى عينيها وثغرها المبتسم، نناظر نافورة في متوسط الساحة وأطفال تركض حولها، كنّا نجلس في أعالي كل هذا، كنت كما من ينزّل من السماء، أتنفس أكثر في كل لحظة...

أفتح الخزانة على مصراعيها لأنتقي ملابس فضفاضة للنوم، خزانة كبيرة ثلثيها من ملابس النساء! والثلث الآخر ملابس تبدو لي، لكن كلّها للخروج...

تلمس يديه بارتعاش خفيف فستان أسود اللون يبدو أنه أصغر حجماً من الفساتين الأخرى، لم يدرك قيس لمن تعود هذه الفساتين حتى وضع رأس

أنفه على هذا الفستان حتى رفع رأسه وكأنه قلبه ضرب على صدره ليخبره بأنه يعرفه، ما إن أخذ الفستان حتى بان في الفراغ الذي خلفه أشياء قديمة، رسائل دفتري مذكرات، ألبومات صور، شريطي أغاني، أشرطة فيديو، زجاجة عطر فارغة وحجر أبيض صغير نحته ملح البحر بخفة فأعطاه ملمس ناعم.

استلقى على فراشه عارياً من كل شيء، من ملابس، من أفكار تدور في خلده، ولكن الحيرة دارت في مسارات رأسه ببطء، أبطئ من رحلة خارج مجرة الأرض، وراح يذكر كل شيء لحظة بلحظة بمساعدة رسائل ومذكرات وجدها وضعت على رف صغير فوق الفستان

***

(2016/9/20)

جوليا، أعلم أنّي لا أحدثك كثيراً لكن لم يزدني السكوت إلّا عطشاً... لا أطلب سوى حديث آخر مثل الذي أهديتني إياه منذ يومين، قلتِ لي حينها (لتطمئن يا صديقي فإن الله كريم وليس كـ ريم، هو الذي ليس كمثله شيء) أعلم هذا يا عزيزتي أعلمه جيداً ولكن أتدرين كيف أشعر؟ وكأنها أكلت قلبي وبصقت دمه على ضلوعي البيضاء، إن لعيني تتعرق،

صدّقيني تتعرق دمعاً ودماً كلما رأيت حلقة ذهبية تطوف حول إصبعها، كلما رأيت ذلك أشعر وكأن قلبي يضخ محلول أزرق بارد يجري في جسدي حزناً فيتعبه، لقد كنت خيراً لها فلما يطردني وطني منه لأن محتل أذاه!

***

(2016/10/2)

جوليا، عزيزتي لتأخذي حذرك فنحن وفي كل خريف مع الأوراق التي تسقط، نموت شوقاً لأشخاص فارقت أغصاننا وسقطت عنها...

وأبكي عليك بكاء يعقوب على فراق يوسف، فينفطر القلب قبل أن تبيض الأعين...

أدري أنه على أن أترك كل شيء خلفي ولكنني أشعر وكأن أنوار المدينة أطفئت حداداً على قلبي الذي أمسى يموت، الحزن لا يكون على الشخص بلى على ما يأخذونه من قلبك فهم يدخلون إليه كضيوف فما يكون منك سوى أن تهديهم غرفة ليضعوا فيها ما يشاءون من أمتعة ذكريات وصور، ثم تكثر أمتعتهم فلا تكفيهم غرفة واحدة فيأخذون منك ثانية وثالثة

والرابعة حتى إذا سكنوا القلب كله أصبحوا هم أساسه فإذا رحلوا هدمت الديار معهم...

عزيزتي جوليا إنني لأشعر أنني أحدث روحي كلما حدثتك فاعذري طول رسائلي...أذكر أنك قلت لي ذات مرة بأن البحر لا يكون خلف كل جبل تتسلقه، لكنني على يقين بأن الجبل القادم الذي سأتسلقه حتماً سألتقي بمرآة الكون وإن تهت سأتجه نحو البحر مثلما قلت لي، وربما ليس لي في كل خريف سقوط، سأرقى ذات يوم عن قاع الدنيا، الوحدة والألم

(Perhaps not every fall is a fall)

***

(2016/10/25)

أعتقد بأن الناس نار، بعضهم يضيء لك في الصباح فلا قيمة له والبعض الآخر يضيء لك في منتصف ليلة حالكة تعتريها البرد والمشكلة أن كلاهما قادر على أن يحرقك بشرارة صغيرة...لذا عزيزتي، لا تبحثي عن الحياة في مشارف الموت، عن السعادة في حرم الحزن، ولا تبحثي عن السكون في أزقة الضجيج.

ولكن ليس هذا ما أود أن أحدثك عنه اليوم، هنالك شيء يسكنني منذ عدة أيام لا يمكنني أن أخبرك به حتى أتأكد من ما بات يبصره قلبي، منذ يومين جلست بقربك في الجامعة تبادلنا الحديث، تبادلنا ساعات، قلت لي حينها بأن محاضرات الحياة أهم من اثنى عشر سنة في المدرسة ومن شهادة دكتوراة في أعرق جامعة... صدقت حينها، صدقت حينما دعوتني للجلوس وقلت سأعلمك درساً اليوم، وجلست وتركت أطراف الحديث لي، كنت تنصتين فحسب، لربما كنت تخشين عليّ من بحّة صوتك التي تسكن فيها حكايات الزمان وانفعالات الموسيقى، لكنني لن أتحدث عن فستانك الأسود الجميل، ولا شمس الصباح الدافئة في بدايات الشتاء، ولا عن حذاء الباليه ولا عن جواربك النسائية ولا عن ما قلت ذلك اليوم، وبالطبع لن أخبر الناس عن ابتسامتك حتى لا يهذوا فيها، لكنني سأتعرى بأفكاري أمامك اليوم.

سأخبرك بأنني كلما كتبت تركت لك رقعة بيضاء علك تكتبين عليها كما كتبت ذات مرة على روحي الفارغة بأن تكون ممتلئة بك، بأنك كلما ما ابتسمت تسمّرت معك بسمة سرية تعلو قلبي، وبأنني لطالما أحببت أن أتعلم الغرق في عينيك تلك!..هاه؟ ما رأيك؟

لقد كانت هذه الرسائل ثم هنالك اسطوانة لا شك بأنه ذوقي قبل سنوات ما الذي سيناسب شاب صغير في سن التاسعة عشر!

***

عاد قيس ليتحسس الفستان وقد وضع الأسطوانة في جهاز الموسيقى الصغير، وها هي الموسيقى تضرب إيقاعها برقّة في أنحاء الغرفة، تعلو ابتسامة على وجه قيس لا شك بأن تلك الممرضة هي صاحبة تلك الملابس وتلك الابتسامة لا شك بأنها هي زوجته...

يتحوّل كل شيء في عيني قيس للون الضبابي ذات يختلط فيه السواد حتى يحيط اسوداده كل شيء فلا يبدو للناظر غيره، الفراش الرمادي يغلب على البياض في هذه الغرفة لكن اسوداد الستائر تحيطه مرة أخرى، ها قد بدأت تغني فيروز ولكن صوت جوليا يدخل من بين أزقة السمع ليقول له: لطالما كنت مجنوناً من يستمع لفيروز في وقت كهذا؟!

تذبل الجفون فتغطي الأعين لتريحها من كل شيء ويأخذه عقله إلى أحلامه، لولا نافذة الحلم في فضاءنا لكنا اختنقنا، إن الحلم اكسجين الشعوب جميعا، وإن اطياف السماء لتنزل رأفة على قلوب لتريحها من ثقل المشاعر في حين نوم...

يغفو وهو يستمع لفيروز تغني:

يا مايلة عالغصون عيني سمرة يا حورية

ورد الهوى عندنا بموج عالميّة

كنت برفقة جوليا نهاد وهدى في طاولة ملتصقة بعمود رخامي موجود في منتصف كافتيريا الجامعة، كان العمود منحوت في كليّة الفنون في بداية أعلاه منقوش عليه زهور ونوتات موسيقية حتى يكتمل إلى النهاية مشكّلاً صورة لكتاب مغلق دون عنوان...

على ما يبدو أنني كنت أدرس تخصص الترجمة واللغات، فأذكر أن نهاد حدثني بالإنجليزية ودخلت لغته كصوت عربي إلى عقلي وكذلك جوليا وهدى، كنت أنا اكثرهم محباً للغات فما أخذت اللغة لأعمل مترجماً أو مدرّساً وإنما لأكتب الشعور كما أجده في أحرفه المناسبة، لا شك أننا كنا نراجع درساً من الدروس

وفي حينها تبدلت فيروز لإيدت بياف **(Edith piaf)** الحياة الوردية **(La Vie En Rose)** وفي ذات حينها تسألني جوليا:

Tu m'aime معناها بتحبني؟

- آه بحبك

***

كيف أصف بسمتها الخجولة في تلك اللحظة؟! وكأن أبواب الجنّة تفتحت لناظريّ... كنت أنظر لعينيها السوداوين بشقاء مشتاق ليقبّل حجر أسود، لم تقل لي كلمة حب حينها لكن لبسمتها تلك كدّت أن أصدح مغنياً:

قدّك الميّاس يا عمري يا غصين البان كاليسر...أنت أحلى الناس في نظري

جل من سواك يا قمري

من غربة هالوجود، والله يا عمّي ناقز

داير على الحدود، بدوّر على معاجز

إن هذه الأغنية تصفني بشكل كبير، تذكّرني بك حين هاتفتك متسائلاً عن سبب تأخرك على الجامعة، أو بالأحرى عليّ أنا...

احتجزوك أبناء يهودا على مفرق المدينة، ما السبب؟ لا سبب، يكفي أنك عبرت من مفرق يحتّلونه، أذكر أن لساني لم يكفّ عن السباب، من هم من يجرؤ على أن يحرمني من عطر وجودك؟! كدّتُ أن أعتصم أمام ذلك المعبر، كيف لهم أن يحرموني من حبيبتي ليومين، كيف لهم أن يحرموني من حبيبتيّ؟!

***

حبّيت عالنقطة صبية، ضاعت مني الهوية

هيّ أخذت عينيّ، وقلبي ضله عالحاجز

وتستمر الأغاني تدور في زوايا غرفتي وأنا أسرح، كان كل شيء في السماء يشوبه هواء أبيض يحجب ما خلفه والشمس تبدو وكأنها انتقلت للنصف الآخر من العالم، نهائياً...

وها هي أندلسيتنا تعود بعقلي، تجرد أرضي من كل ما يضيرها، تجرد قلبي من كل شيء غيرك وتجردني أنا، تعرّي أفكاري لك، علّك تعلمين كم من الصداع يحمل، كم من خوف على أندلسيتي عليك أنتِ، كنت أود أن أرقص، أرقص أحمل كماناً أعزف به وأغني، أحرق كره الجميع للجميع بحبي لك!

سألتك ذات يوم: ماذا لو كانت السّماء هي الّتي سرقت لون البحر؟ أجبتِ: لو كانت السماء غاضبة على سرقة لونها لما كانت أعطت البحر مزيداً من الماء العذب، لا شكّ أنها أحبّته، لا شك أنها أعطته لونها عن رضى، إن جملة (لقد سرقت قلبي) خاطئة، يكفي أن تقول لقد أخذت قلبي مني طوعاً وسلاماً...وإذا سرقت هي قلبه مهما هاج عليها، لن ينفعه بشيء، إذاً أخبرني هل ستهيج ذات يوم عليّ؟

- وكما نختبئ في الصخور هروباً من الحجارة، أريد أن أختبئ بكِ هروباً منك...

***

موعود بعيونك أنا...موعود
وشو قطعتِ كرمالهن ضيع...وجرود
انتِ عيونك سود منك عارفة، شو بعملو فيّ العيون السّود
فمنّ أنتِ يا عزيزتي، كلما إهتزّت في خاطري أغنية اهتزت جدران عقلي باسمك، وقتما غنّت فيروز وقتما تغنّى مارسيل بكلمات درويش وكاظم بكلمات نزار أجد نفسي وكأنني (أمر باسمك إذ أخلو إلى نفسي، كما يمرّ دمشقيٌ بأندلس)

أذكر أن المسافة إلى الجامعة كانت تستغرق ساعة تقريباً، لطالما تذكرتك بهذه الساعة، لطالما كتبت عنك ولك ولطالما تغنيت برسائلك التي كنت أقرأها مراراً وتكراراً، ها أنا ألتقي بك بعد يومين مرتّا وكأن بلاد الله الواسعة باتت تضيق... كنت كلما مررت بذاك الجدار ابتسمت ومع أن رحيل قمر نصير كان يحزنني، فكنت وبلا شك أرضى حين يضيئه بيتهوفن

- تكتبش عن الوطن يا قيس، بترجّاك

- ليش، لا يكون بتغاري؟
- بخاف تكتب عن الوطن يكرهك شعبه أو يقتلك محتلّه!
- بكتب وببعتلك، أنتِ وطني
- لك ما هو أكثر من كلمة حب، أعتذر على كل دقيقة أضعتها وأنا أحاول أن أفهم تبعثراتك
- أعتذر على كل دقيقة لم أضيّعها معك، هل أخبرتك أنني أشتاق كثيراً لأحاديثك الشّغفية؟

لربما تتساءل عن أي أحاديث شغفية أتحدث، يذكرني هذا بحديث قديم يسر نبضتيّ قلبي...

- إذن بما أنك تكبرينني بستة أشهر وقد اقترب موعد ميلادك الجديد، أخبريني ماذا ترغبين كهدية أهدِها لعينيك؟
- دعني من الهدايا اليوم، أتساءل ماذا لو اجتمعا تموز وكانون ثاني مثلنا تماماً؟
- ماذا لو؟

- أعني لو نظرت للأمر من عينيّ، كم من لذة لبطيخ يوليو لو كان في برد يناير، بالطبع ليس كمثل أمطار يوليو الحمضية وبطيخ يناير الأبيض (كانت تقول أسماء الشهور كما تترجم عن الإنجليزية)

***

إذن استيقظ الليل وسَبَقتُ صحوته وصيحته، كما جرت عادتي، ظللت أتقلب لا أدري كيف اخترت هذا السرير، إنه قاسٍ!

أنا لك على طول، خلّيك ليا

خد عين منّي وطلّ عليا

وخد الاتنين واسأل فيا

من أول يوم راح مني النوم

بعدما تغنّى عبد الحليم حافظ صدع صوت ذكرى في رأسي ليقول: أفطرت قلبي؟

- ليتك زدت الألِف ألِفاً، كلّا لم أفعل ولن أفعل، إن قلبك حُرّم علي أن أفطره، إن الجوع في الصباح يتبعه إفطاراً وليس فطر، مجرم هو من يفطر قلب أحدهم خصوصاً في بداية يومه...

إذن أين أنت عزيزتي جوليا، اشتاقك، أو بالفرنسية **Tu me manques**

أي أنت تنقصني...

قال لي أحمد بأنه سيأتي في الصباح، وبأنك ستكونين حاضرة وقت الظهيرة، وقتما قابلت أذني كلمة خرجت من ثغرك لتقول كلمة حب، وكما التقيت بك طفلاً يا عزيزتي أكون بالحب، أولئك الذين يعرفون الحياة، الذين يلاحقون أحلامهم الصغيرة وابتسامات تلوح على أوجههم الصادقة...

أذكر أنني ظللت في تلك الليلة ساهراً، كنت أحدث نفسي عنك، أصفك كما يراك قلبي، فقلت وقد أكمل عبد الحليم:

ابعت لي سلام، قول أي كلام

من قلبك أو من ورا قلبك

مش يبقى حرام أسهر وتنام

وتفوتني اقاسي نار حبك

(إن لون عينيها صعب، أعني أنت تعرف جذع الزيتون...يخيّل لك أحياناً أنه أسود اللون، وفي حين شمس تراه بلون الكستناء، كذلك عيناها، مهما تبعثر الكحل على عينيها بدى لي وكأنه طريق في مدينة قديمة وبرغم تعثرها تبدو جميلة، وحينما تبتسم يحيطهما تعرجات الزيتون المبهج)

لتصدّق يا صديقي، إن الله يبعث لنا بأشباه أنبياء ليخرجوا أرواحنا من بقعة تشتت الضوء إلى بقعة امتصاصه، أعني تخيّل لو أنه هنالك شخص أهداك صندوق مجوهرات....بعد أن تضيع عينيك ويُفتن قلبك سيكون لك سؤال وحيد، وهو السؤال عن السبب، لماذا؟

لكن لماذا نلوم الله على أوجاعنا ولا نسأله على نعمة لا نستحقها، لماذا أنا من يتنعم بهذا يا الله، ماذا فعلت لأرضيك؟

في هذا الليل في هذا الفراغ الذي نعيشه، وكأن داخلنا بيت مهجور ممن سكنوه، تجرّد من كل شيء عدا الذكريات، ها نحن نغنِ بصمت، نكتب دون أن نعيد قراءة ما نكتبه، لأنه لم يعد يهمنا ما سيشعر به الغير، يكفي أننا ملئنا زوايا الفراغ بشيء بسيط، لا تنظروا لي بعين حزن، أنا لست مكتئباً، أنا فاقد للشعور فحسب، وحده الآن فهمت درويش عندما قال: لا شيء يعجبني...

يسألني البعض: ولما الموسيقى؟ أتفهم ماذا يقال حينما تلامس ريشة العازف عوده؟، أتعرف ماذا يخط الرسّام حينما تلامس ريشته اللوحة البيضاء؟، وهل تعرف ماذا سيكتب الشاعر حينما تنصبغ ريشته بحبره الأسود؟

فأجيب: لا تكن كالهواء، تأخذ الريشة أينما تريد أنت بل اتبعها ودع عقلك يمارس انحناءاتها الرقيقة، نحن لا نحتاج أصواتاً لكي نفهم، نحتاج لغة فحسب.

وكأن الأفكار باتت كازدحام على حاجز في ساعة صباحية، لا ينتهي فيه التعب ولا تكفّ محاولات التملّص، هناك نقم وصراخ داخلي وهنالك شتائم في السر تكاد تمادى على كل من في المكان، وهناك النائم ذاك الذي يزيد الازدحام نقمة كلما استيقظ.

صدق من قال بأن الذكريات كالسجائر، هي لن تنتهي منك حتى تنهيك، وترمي أقماعها في جوفك دونما أدنى شفقة.

يراودني سؤال على حين غفلة بصوت أنثوي: لماذا تكتب يا حبيبي؟ لماذا تحاول أن تنسخ كل تفصيلة صغيرة في كل شيء وإن كان وشاحاً أسود في ليلة حالكة؟

- كي لا أنسى، أود كلما قرأت أن أرى بعيني كل شيء كما وصفته، كما رأيتك ذات مرة في فستانك الرملي الذي جعل لبحري شاطئاً لا يسكنه غيرك، كما زرعت بحر لغتي في لؤلؤات ابتسامتك

***

أتدرين يا عزيزتي؟ هنالك أوقات مهما قلت لن تكتفي بما قلته، أعني حينما يسألك أحدهم (كيف حالك؟) وفيك تشردت الحال ألف حال، كيف لك أن تجيبينه؟ بألف حال أو بنصف حال؟ بخير أنا، بخير وكأن كل الأفكار تخرج من رأسي المثقل لتستلقي على صدري، ولكن قلبي الذي امتلئ حباً بات يسكر تلك الأفكار حتى تقع فتريحني. حبيبتي، أكون جثة هامدة فما أبعث حتى لألقاك، ففيك الحياة ومن ابتسامتك روح ومن ثنايا صوتك أمل، انا بخير ما دمتِ هنا...

لكن المخجل حينما يسألك شخص ساذج، كيف تكتب أو متى ستنثر لنا قصيدة؟ أو يسألك أن تكتبه في شيء، إنني لا أكتب عن أحدهم سوى عندما يذيقني شقية أو اشتياق ولعينيك شقاء مشتاق ليقبّل حجراً أسود!

في داخل كل كاتب أو شاعر هنالك نبيّ صغير يتأمل فيما حوله فتنزل على قلبه كلمات فصيحة فيما يراه أو يشعره، سواء أكان قبيحاً او ساحر الجمال هنالك دوماً ما يقال وإن كان في السكوت...

***

والآن وقد باتت مخلوقات الله في هذا البلد نيام، تخرج الأسرار والأفكار من بين ثنايا الثنايا من بين تشابكات الضلوع وعمق الذاكرة، ها قد بات

عصا الكمان يعزف على الوتين دونما آلة، فتخرج الموسيقى من قعر قلبي بلا صوت...

أذكر كيف كان شجارنا الأول، كانت الغيرة قد أصابتك، أو أنت أصبتها لا أدري، كان ذلك في أواخر شهر تشرين الأول حينما نشرت روايتي الأولى، وكالعادة حضور النساء كان يطغى على أعداد الرجال في الحفل، وحينها لم أعارض أن تأخذ لي إحداهن صورة، ولكنك على حين غفلة غادرت المكان، لحقت بك لكنك لم تقولي أي شيء سوى: لربما قلبك الأزرق البارد يحتاج دماً ليتماشى مع بنفسجيتي، أدري أن الأمر جميل إذا نظرنا له من عين فلسفة ولكن لو نظرنا له من عين قلب، فأنت بالطبع لن تحبذ أن ترى من تحب أصابه قبس من حزن، لذا كل ما شعرته حينها كان ألم في صدري...

آه تذكرت شيئاً سألتني إياه ذات مرّة: لماذا يؤلمك قلبك حينما تحزن؟

فأجبت: أعلم أنه لا يصيب الجميع ولكنه مؤلم وكأن حساماً يضرب الفؤاد فيظل كاظماً رغم ألمه، لذا عند الخطأ لا تعاقبوا بالصمت أو بالرحيل فإنه أشد من جرح خالد أو من شوق عاشق ساهر

كانت كهذه الليلة، بلا هواء، كانت كهذه الليلة أستمع لمقطوعات لست أعرف أصحابها أو لستم تعرفونهم...لقد كانت محادثة هادئة، هذا هو اسم المقطوعة لذا خطر في خلدي أن أكتب لك شيئاً عله يرضيك عزيزتي، فإنني أخشى عليك من ثلاثة: التعب، الحزن واليأس، أعاذك الله من العجز والكسل يا حبيبتي.

***

(5/24)

أتدرين عزيزتي، أود لو أخبرك أنني تعبت، أنت رائعة خلق فيك ربي كل أشكال الجمال، راقت لي بسمة السماء التي تتجلى بين خديك، راقت لي جوهرتي من غياهب الأرض عجزت كل الكهوف والمناجم أن تحملهما وما عجز نور وجهك أن يسطع من كليهما، وراقت لي لؤلؤات في قاع بحر بين جزيرتي ذهب وإن كان الذهب من شفتيك وكان اللؤلؤ بينهما يغطس، خلق ربي لك صوت إن سمعت بحته الخناجر لانسلت عن رقاب المساكين، ولأنك أنت عزيزتي أنت فلك مني كل ما أملكه؛ لي قلب وعقل وبال منشغل، لي جسد وصوت وعيني ثائر لا يرى سوى بندقية ووطن وفيك ارتسمت بندقيتي وفيك قدسية من وطن...

عبثا أسألك: لما سكين السلاح يجرح صاحبه؟ فأجيب نفسي: لأنه أنزله ولكنني والله ما أنزلت منك شيئاً ورفعتك فوق صدري ورأسي وجفنتي عيوني وإذا ما خضنا خصاما شعرت وكأن سكينك تدخل بين الوتين والحنين، لذا رفقا بقلب تشقق مما رأت عينه ورفقا بوطن تشتت مما رأت أرضه

لربما تساءلت لماذا أناديك عزيزي، بصراحة لست أعلم يهيئ لي بأنني حينما أكتب أحدث نفسي أو بالأحرى أحدث ما في نفسي.

هل لي أن أناديك صديقي؟ لتكن صديقي...

أخبرني يا صديقي أين أنا الآن، لا شك بأنك تعرف عن حياتي أكثر مما أعرف أنا، ما الوقت الآن، ما التاريخ، أين أنا ومن أكون!

أهو الليل أم أن السماء توشحت بذكريات سوداء وطغت على المكان بعتمتها؟ أنا لست هنا، أحدثني بصيغة الغائب لأنني وباختصار لا زلت في مكان ما من اللاوعي، لولا أنني دسست نبضي بالأمس لما علمت بأنني حي، أعلم بأنني حي ولكنني لا اشعر بذلك، أحدثكم لأنني ليس عندي ما اقوله...

لن أخبركم كيف وصلت إلى هنا لأنني لست أعرف أي شيء، آخر ما اذكره أنني كنت في الحافلة عائداً إلى حيفا أو إلى جنين، لست أذكر.

كانت الأيام في آواخر تشرين الثاني، أو كما تسميه هي نوفمبر. تتغنى لينا بالأسمر اللون:

(يابو عيون وساع... حطيت بقلبي وجاع... بعطيك سبع رباع... من عين رسمالي)

وقبل أن أكمل يا صديقي، علي أن أذكرك بأنني وفي الآونة الأخيرة من تلك الفترة كنت كثير الشرود، كنت أنا صيغة الغائب غالباً وأحدثني بعد أن استيقظ.

وعندما استيقظت من الغياب وجدتك أمامي، لقد كنت ريم أو شبهت أحداهن لك، رأيتك وفي يدك اليمنى خاتم ذهبي وكأنه كان يلتف حبل مشنقة على رقبتي، أردت أن اناديك باسمك لكنني كنت أعلم بأنه أنت ولست أنت في ذات الوقت، لا أخفي أنني ذرفت سراً بضع دمعات حرقة ولا أخفي أنني طوال تلك الساعة لم تراقب عيناي غيرك أحد أو شيء غير ذلك الخاتم الذي لا يلمع.

***

لا شك بأنك فوّت نقطة في مكان ما، وعندما أقول بأنك فأنا أقصد نفسي لأنني أحدثني بصيغة الغائب أحياناً! والآن سأعود بك (بي) دقيقتين

للوراء عندما أشعلت سيجارتك وتجرعت أول رشفة احتراق، كيف لرشفة سم واحدة أن تسطع عينيك بخمس سنوات للوراء! ها أنت ترتمي في أحضان شوك الذكريات، آه كم أنت مقيت! لماذا تريد تذكر حياتك المزرية المشبعة بالسقوط والنهوض، بالموت والحياة.

كل تلك الكلمات ليست متناقضة إنما هي على نفس المسار يا طفلي الصغير، نعم أنا أحدثك أنت، لا شك بأنك لا تقرأ لكنك تحتل صدري منذ أن خلقت، يقال بأنك تضع محلولاً أحمر اللون ما يبقيني على قيد الحياة، آه كم أنت ضعيف في تلك الأمور! لماذا تبكي كلما صرخ بك أحد المارة أو تركت وحيداً مكانك، أنت في مكانك فلماذا تبكي!

***

وها قد طلعت الشمس على فراشي البارد، الذي لم يلامسه جسدك طول الليلة الماضية، ها قد لامست يدها وجنتي مثل كل صباح وكأنها يدك، ها قد تغنى لي البحر مثلما تفعلين أنت دائماً بصوتك الشجي المرتعش، يا لبحّته!

***

ها قد دقت الساعة معلنة بدأ عام جديد ليخرج الحمقى بقرارات جديدة تُنسى في صباح اليوم اللاحق لأنها قرارات سكرى، سكرى أولئك الذين

ينتظرون سنة حتى يغيروا من أنفسهم ثم يترنحون في نفس المكان، لكنني لا أهتم لأحد، ولما علي أن أهتم بأي كان سواك، ها أنا أحدثك في كل لحظة ولكنني لا أجرؤ أن اخبرك بكلمة حب بعد، منذ ساعتين وبعد أن اعترفت أخيراً بأنك في الهوى الذي أنا أركض به منذ سنة وأسطّر كل ما أشعره اتجاهك برسائل وبرواية لربما لن أجرؤ أن أخبرك بها، قلت لك: أحبك منذ زمن، دعي الأحلام تكمل الحديث لليلة ولنعبّر الرؤية غداً. لكنني ها أنا لم أنم الليلة أرتعش في أكثر الغرف برودة متلحف غطائي الأسود وأكتب لك مجدداً ودخان السجائر يصيب المكان بالدوار. أحياناً أشعر بأنني عندما أدخل هذه الغرفة وكأنني أدخل رأسي، بارد جدرانه، ممتلئ بالدخان وهنالك الكثير من التراكمات هنا وهناك! ها أنا اكتب لك لكنني أكتب بأنانية عن نفسي، اعذريني لكنني لم أحدث أحد عما في داخل رأسي أو ما في داخل صدري عداك، لذا آمل أن تتفهمي إن أطلت الكلام، لاهٍ وشارد في كل شيء حولي وفي اللاشيء في آن، وكأنني في منتصف إعصار يدور دون أن يعرف ماذا يلتقط في طريقه أو ما يحيطه من ثقل، دون أن يفهم كروية الأرض، ودون أن يفهم وظيفته

سوى أن يسير عكس ما تشتهيه السفن، وبما أنني أسير عكس العالم إلا أنني أحمل وجهة أمشي بها راغباً بأن أنعش كل ما في طريقي.

أتعلمين يا عزيزتي، إن قلوبنا كالفحم، نعم كالفحم لا تتعجبي! قلوبنا تتعلم الكثير من القذارة واللاشعور منذ الصغر فتصبح سوداء اللون بعد أن تحترق قليلاً، ثم لن تنصبغ باحمرارها حتى تلتهب بالشعور، وتبقى على حالها ملتهبة إما بشكل موجع أو تكون نار العشق برداً وسلاما فلا تضير القلب حتى يطفئ لهيب العشق فيصير أبيضاً.

والآن أخبريني يا عزيزتي، لماذا نقول فلان قلبه أبيض بدلاً من أن نقول أحترق قلبه كفاية؟! أكتب لك يا عزيزتي متخبطاً مرتعشاً، لأنني أخشى من كلمة حبك تلك، ماذا أفعل وقد شاخ قلبي؟ أكره كلمة الحب على قدر ما يشتاق قلبي أن يسمعها مرة أخرى، ولكنني أحبك وها أنا أقف عند حافة قلبك مرتعش، عارٍ، ومشوّه، لأنني لا زلت كلما هربت إلى قلب أضرم ببيتي النار وجرّدني من كل شيء، والآن قبل أن أنم، هل لي أن أناديك أمي؟ أنا طفل في الحب، ولا شك عندما تقرأين كل ما أكتبه لك ستجدي أنني وصفت نفسي بالطفل كثيراً، لماذا؟ لأنني ضعيف في تلك الأمور...

وها أنا مرة أخرى وأخرى، أتحدث بعيداً عن القصة، لا أدرك مفردات الوقت. لا شك يا عزيزي بأنك سئمت هذه الليلة التي لا تنتهي، هذه الليلة التي تعيد نفسها، التي لن تضيء حتى يظهر قمرها الوحيد. والآن لأحدثك مرة أخيرة عزيزي القارئ، واعلم أن ما سأقوله الآن لك هو وبرغم اختلاطه، صحيح بصراحة.

لطالما وددت أن أبحث عن تعريف حقيقي للعشق لكنني لم أجده، لذا ها أنا أخبرك بتعريفه وعليك أن تحفظه جيداً لأنه سيهمك في كل مراحل الحياة: العشق، هو أن تسير واضعاً على عينيك غمامة، يقودك معشوقك على أرض لا تدري أرخوة هي، صلبة أم متكسرة، في طريق لا تعرف أين اتجاهها ولا ما فيها من خبايا، في هذه الطريق الأمر يعتمد على الثقة فإما أن تُترك لتسير وحدك إلى هاوية دون أن تدري ويبتعد عنك المعشوق شيئاً فشيئاً حتى تسقط، أو أن يوقفك في منتصف الطريق مدعياً التعب، أو أن يكمل معك الطريق ويبتعد معك عن كل عائق أو يهرب معك. إن العشق يا عزيزي ألم لذيذ، وكأنه عشاء أخير ولكن في الجنة.

***

لربما صوت غليان القهوة ذكرني بكل فنجان قهوة شربناه معاً، لربما صوت الموسيقى ذكرتني بهدوء المكتبة القاتل التي كنت أمينها في دراستي، ذلك السكوت الذي تحدث بالجمال كلما حضرت، كلما رأيتك واقفة أمامي تنظرين إلي بعين حب. مرّت السنوات بسرعة، خطبتي لك لم تكن بالسهلة ولكن الكنوز لا تأتي دون جهد وتعب. أذكر أول قبلة لنا، أول مرة لمست بها يدك، أول مرة قلت لي أحب، وأول مرة احتويتنا بها في حزني.

والآن وقبل أن أكمل الرواية التي لطالما تساءلت، هل يمكن أن اكتبها في ليلة واحدة، وها أنا أكتبها في ليلة واحدة لأجلك فقط، لأنني أريد أن أهديك إياها في الصباح، لأرى بسمتك تعتلي وجهك. دعيني أخبرك ما لم أقله لك من قبل: إن أكثر ما أحبه بك أنك بريئة براءة الرضيع، تبحثين عن أي عذر حتى تسامحي، وإن سألك أحدهم عن قبح فلا تكوني قد عرفته مسبقاً، وتستغربين بأن الناس من الحيوانات المفترسة.

أحب بك أسنانك التي لا تزال لبنيّة وأنت في سن الثانية والعشرون والتي أشعر بأنك قد أظهرت جمالهن بابتسامتك تلك، نعم ها أنا أراك تبتسمين خجلاً وجمالاً وتاريخ عشقٍ مشرق!

***

والآن عرفت ماذا يعني سبحانه بظلمات فوق ظلمات. في البداية، ما هو الظلام؟

هو ذلك الذي يحصل نتيجة غياب الضوء، ففي اللوحة كلما قل الضوء ازدادت الظلال، والآن ولا شك بأنني أتحدث عن الآن كثيراً عندما أذكرك، لأنه لا يؤجل الفرح سوى الغبي، والآن لأنت يا شعاع النور، كيف ترغبين من طفل صغير في الحب ألّا يخشى في عتمته حينما تغيبين؟ أنا أدرى أن الأيام فرقت أوقاتك ولكن إن لم يكن شعاعك يكشف عن الأعمى الصغير في صدر رحب وسع هموم الجبال ليرد بصره، يكفي أن تدفئيه فحسب!

***

ها قد جاء أحمد في الصباح كما وعد، ليكمل القصة لقيس. ولأن الصراحة هي الجرأة الحقيقية، اختار أحمد أن ينهي بها.

أما قبل يا صديقي، فأنا آسف.

وأما بعد، فإن الذاكرة تخون، ولأنها خانتك مع الخيال، سأحد تلك الخيانة بالحقيقة. وكما ترى أنا أتحدث برعشة في صوتي لأنه قيل لي أن الحقيقة

تؤخذ على جرعات لتخفف وطئتها، ولكن أنا أقول بأن أفضل طريقة لتحمّل الواقع، هي أن تتجرع مرارته مرة واحدة.

أما عن ريم، فقد كذبت عليك بأمر خطوبتها ثم جاءت لتعتذر بعد أن تركتها من ذاكرتك، فصددتها وندمت لأنك قلت بأنها شيطانة إذ جاءت مكحلة عيناها كالشياطين، فقلت: نحن شياطين هذا العالم، لماذا؟ لأننا نترك أحلامنا وحيدة، نجوع فنأكل منها. إن أعظم الأحلام هو الحب، أنت حي ما دمت تحب، ما دمت تفتعل كل الجنون.

وأما عن جوليا فقد عدلت في كل ما قلته عنها إلا أنها ابنة ديسمبر وليست ابنة يوليو، ولا شك بأنه لديك الكثير لتخبره لها لذا سأترك الأمر لك.

وأخيراً وأكثر ما يؤسفني يا صديقي، لو أنك نظرت من النافذة لنا ترى بحر، ليس لأن غرفتك لا تطل على البحر بل لأنك لم تعش يوماً في حيفا! يؤسفني يا صديقي بأن أخبرك بأنك قد قلت ذات يوم: (أوقات بحس انقسامنا رح يدوم أكثر من الاحتلال). يؤسفني لأن قصيدة بلاد العرب أوطاني كانت لك على هذا النحو:

بلاد العرب أوطاني، بلا شام وبغداد

ومن يمن إلى يمن، إلى مصر فلبنان

فلا حد يقربنا، ولا دينار يجمعنا
لسان الضاد فرقنا، بغسان وجبران
بلاد العرب خيمات، من الشام لجولان
ومن عراق طهران، نصلي الظهر ظهران
لنا مدينة فجرت، سنفقرها إن بقيت
ولو في وجههم وقفت، يكبّلها سجّان
بلاد العرب خيبات، من صور لسودان
فهبوا يا بني قومي، إلى العلياء بالدمم
وغنوا يا بني أمي، بلاد العرب أوطاني
بلاد العرب أوطاني، من فقر لطغيان
ومن قتل إلى محن، إلى هجر فغرقان

لطالما جلسنا، على طريق حيفا وتغنينا: وحيفا من هنا بدأت، لكن الحقيقة المرة أننا لم نرها سوى بالصور، لأننا نرفض أن ترى أعيننا غير ما قاله أجدادنا. والعرب أخوة يا صديقي، أخوة مثل هابيل وقابيل. أما ذلك الذي يتحدث، فكاتم الصوت ينتظره أينما ذهب، لذا ها أنا أخبرك. أن تقول نصف الحقيقة لا يعني أنك تكذب، بل يعني أنك تريد النجاة!

والآن ها قد وصلت للحقيقة الكاملة، يؤلمني أن أراك عشت كتاباً نصفه في الخيال، ولكنه يسعدني أيضاً. ولتأخذ هذه المقالات التي أهديتني إياها، لربما ستودّ أن تضيفهم لما قلته.

***

فشّة غلّ

لمّا بدي أحكي عن الوطن، بكون مثل النسوان...
بحكي بحكي وبحكي وبالآخر بقول خليني ساكت، ليش؟ لأنه فعلاً لسا في كثير حكي ينقال، يعني يا صاحبي كلنا بنعرف أوضاع البلاد....
هالبلد ذايبة أرضها مباحة ومستباحة للجميع بس أكيد احنا مش من الجميع، يعني دخلك لمّا نسافر ليش بكون في صف للأجانب وصف للعرب... برغم أنه البلد عربي! (علاقات دولية ما دخلنا فيها؟)
يعني بس اطلع على مدينة بلاقي كره للقروي وبس اطلع على قرية بلاقي كره للمدني...

لازم كل ما اطلع بباص حدا يسألني عن اسم عائلتي وأي منطقة ساكن، وإذا اسم عائلتي كان اسم مشابه لعائلة من دين ثاني لازم يسألني عن ديني، يا ريت لما بدكم تتعرفو على شخص ما تفتحو معه تحقيق، ممكن تسأله عن تاريخ اليوم ويدور الحكي، ممكن تسأله عن الطقس، صدّقني احنا شاطرين بالحكي...

في أرضنا المقدسة أكثر الأشياء تشويقاً (الحكي على الناس)

في أرضنا المقدسة أكثر ما نبدع في الرياضيات (التقسيم)

في أرضنا الديمقراطية لا نرفع اصواتنا خشية من أن نزعج جيراننا الذين يسكنون في الطابق العلويّ.

عمي إسرائيل

لو كان عمّي إسرائيل حياً لتبرأ منكم، إنكم لتأكلون لحم يوسف حياً. سئمت وجودكم في كل مكان، سئمت انتشار السرطان في أجزاء المريض، لماذا عليكم أن تخرجوا من كل مكان! أكون أتخيل البحر أمامي فما أرى سوى ذاك الذي ذابت عليه بدلته الخضراء، فأفسد جمال اللوحة! لماذا

لرصاصة مكونة من معدن به حفنة بارود أن تقتل روحاً اتسعت بها العالم، أن تقتل حلماً لامست حدوده أطراف السماء؟، ولماذا لقطع الحديد أن تخرق هدوء المكان بصوتها؟ تيقظ الطيور من سباتها والأطفال من ألعابها؟ لماذا لا تغربوا عن قلوبنا؟ إن وجودكم يمرضنا، كالسرطان أنتم تنتشرون، تنهشون وتكرهوا في أنفسنا الحياة، ولكنني أنا ذلك المريض، وصلت المرحلة الرابعة ولا زلت أقاوم حتى يزول المرض وكل بقاياه، أنا باقٍ وجسدي وروحي وإن مت فغيري سينجو، ويداوي مرض الجميع وجروحهم وانكساراتهم. أنا هنا وإن كانت أرضي فراش موت، فإنه يعجبني، وإن مت، سيبقى مكاني الذي أمتد فيه بعنفواني.

الجامعة

أود أن أعلم الجميع أنني طالب في سنتي الثانية من الجامعة، لذا لست خبيراً جامعي ولكنني وجدت أنها تصغير لكل دولة، كل ضريبة وكل زيادة لا لزوم لها تدل على أنها جامعة فاسدة في دولة أكثر فساداً، الطعام في الجامعات بلا رقابة؟ إذاً لا تقلق فإن حماية المستهلك في بلادك لا تعمل،

إن كنت لا ترى أماكن مخصصة لذوي الاحتياجات الخاصة فاعلم أنه مجتمع انعقدت خلايا عقله لقلة التفكير، إن كنت ترى أوساخ الجميع تلقى في أرض الجامعة فاعلم أن الأطفال قد يكونوا أكثر عقلانية ممن يدرسون في هذه الجامعة واعلم بأن أرض الوطن تكتسي أكياساً بلاستيكية، وإن كانت دورات المياه أنجس من حظيرة خنزير فاعلم يا عزيزي أن أصحاب هذه الحظيرة قد تمرغوا فيها، ولا ننسى العراكات والقتل في أرجاء الجامعة دون أن يسيطر الأمن فهذا كله يعني أنها دولة بلا أمن، وإن رأيت معلماً يشتم هذا ويأكل مال هذا فاعلم أنه لا خير في جيل جديد، وفي النهاية يا صديقي لو دخلت الجامعة ولم تجد علماً لدولتك لا تحزن فإن الأحزاب فيها تقاسمته ألواناً حتى يرضى الجميع...

شريعة الغاب

واجتمع الأسد بلبؤته ليتباحثا قانون الغاب الجديد، فصدر عن كليهما ما يلي:

1-ألا تزوّج الأنثى لمن تحب وترضى.

2-أن تزوّج البكر دونما سؤال.

فكان حكمهما قد ساد وأصبح القطيع يبني قراره وفقاً للقرارين، وسكن الليل السماء يوماً بعد يوم على نحيب تلك الإناث حتى اصبحت عادة لدى جميع حيوانات الغابة تحت مفهوم (هذا ما فعله آبائنا) وبالطبع كما تعرف يا صديقي في شريعة الغاب هذه ليس هنالك سوى أن تبكى الأنثى ويفرح الذكر باغتصابه المشرّع!

(العيب: أمة لا عادلة يسودها بدع)

***

بقولوا البلد بخير، بس بتعرف وينتا بحس البلد بخير؟ هي مجرد مسافة طريق، مجرد ساعة ازا مرّت مثل ما بتخيّل بتكون البلد بكل خير. لما يكون دخول الباص بالدّور، لما تدخل تسلم على السوّاق ويردّ السلام، لما صوت المسجل ما يجبر الجميع يسمع مثل ما بحب السوّاق يسمع، لما يكون من بين الخمسين راكب خمسة بس ماسكين كتاب يقرؤوه، لما ينزل الكل وما يخلّي ورقة وراه، لما الي يقعد حدك ما يفتح معاك تحقيق على خلفية دينية أو سياسية أو عرقية، لما يبطل حد يوسع ذمته ويصير يشوه سمعة حد قدام الجميع، ولما توصل على مدينة غير مدينك وتحس حالك محل ولادتك. هون بتكون البلد بخير!

ولأول مرة أشعر وكأنني حي بمشاعري وأفكاري، والتي ألتمسها لأول مرة خارج دفتر بارد، هي أنت عزيزتي، أنت كل ما هو حي في داخلي. وها أنا أحيا من ذرات الرماد المتناثرة، وكأنني مستلقٍ وفوق عيني عيناك تناظرني وحدي وتزيد من تماسك تربتي، ها هي حبيبتي الأمطار تجمع أطرافي المتباعدة بلمستها الباردة على جسد ملتهب، تطغى بصوتها على المكان الصاخب بالهدوء.

من بين ثلاثة أقمار سطعت، من بين ثلاثة أثواب للسماء ظهرت. كنت أنت قمري الوحيد، كنت أنت الثوب الوحيد، وأنت التقاء الكون، والآن بعيداً عن ملذات الدنيا ومذهبات العقل، أو بالأحرى بعيداً عن جمالك ونغمة صوتك المنحنية خجلاً، ها أنا الليلة أعود من أجلك وبك من الغائب إلى المتكلم، لأن وحده حبك وانعكاس الشمس في عينيك ما يجعلني أود التكلم. أنا لست هنا لأتغزل بك أنا هنا لأعبر لك عن امتنان قلبي لك.

التيار الكهربائي منقطع، ودخان السجائر يسكن الغرفة، الأوراق منهمكة على المكتب، على موسيقى مطرية. نعم، فالصوت يتخافت، وهمسات تتعالى في اللامكان، الشمعة تذوب مثل الكلمات حتى تختفي من حولها حلقة النور.

وها هو قلمي يتساءل، هل وصلنا النقطة حقاً؟ أهذه هي النهاية لكل شيء؟ أم أن هنالك مفترق آخر أقل إرهاقاً.

3/09/2018 -2/21/2015

تمت